

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ الشُّورَى

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء الخامس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة «الشورى» هي السورة الثانية والأربعون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد نزول سورة «فصلت» . وعدد آياتها ثلاث وخمسون آية .

وتسمى - أيضا - سورة «حم عسق» ، لافتتاحها بذلك .
والرأى الصحيح أن سورة «الشورى» من السور المسكية الخالصة .
وقيل هي مكية إلا أربع آيات منها تبدأ من قوله - تعالى - : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى»

ولكن هذا القيل لا يعتمد على دليل صحيح ، بل الصحيح أن السورة كلها مكية .

٢ - وتبدأ سورة الشورى ببيان أن الله - تعالى - قد أوحى إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، وبيان مظاهر قدرته - عز وجل - ، وأنه - تعالى - قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة ...

قال - تعالى - : «ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة» ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير» .

٣ - وبعد أن أنكر - سبحانه - على المشركين إشراكهم ، وساق الأدلة على بطلان هذا الشرك ، وأمر بالرجوع إلى حكم الله - تعالى - فيما اختلفوا فيه

بعد كل ذلك بين - سبحانه - أن الشريعة التي جاء بها الأنبياء واحدة في جوهرها ، وأن تفرق الناس في عقائدهم ، مرجعه إلى بغيتهم وأهوائهم ...

قال - تعالى - : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقبلوا الدين ولا تفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعونهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ...

٤ - ثم انتقلت السورة البكرية إلى الحديث عن مظاهر نعم الله - تعالى - على عباده ، عن طريق ما أودع فيهم من عقول ، وما أنزله لهم من شرائع ، وما حباهم به من أرزاق ... ووبخت الكافرين على كفرهم مع كل هذه النعم التي أنعم بها عليهم ، وبينت ما سيكونون عليه يوم القيامة من حسرة وندامة ، وما سيكون عليه المؤمنون الصادقون من فرح وحبور ...

قال - تعالى - : : ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور ...

٥ - ثم واصلت السورة حديثها عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن ألوان نعمه على خلقه ، فتحدثت عن فضله - تعالى - في قبوله لتوبة التائبين ، وعفوه عن سيئاتهم ، وإجابته لدعائهم ، وإزالة القيث عليهم من بعد قنوطهم ويأسهم ، وخلق السموات والأرض وما فيهما من أجل مصلحة الناس ومنفعتهم ، ورعايته لهم وم في سفنهم داخل البحر ...

قال - تعالى - : : ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن

الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إذ في ذلك لآيات لكل صبار شكور .
أو يوبقهن بما كسبوا ويمف عن كثير

٦ - ثم بين - سبحانه - صفات المؤمنين الصادقين ، وأثنى عليهم ثناء عاطرا ، يحمل العقلاء على الاقتداء بهم ، وعلى التحلى بصفاتهم ...

قال - سبحانه - : والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ماغضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل .

٧ - وكعادة القرآن في المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأخيار ، أتبع القرآن هذه الصفات الكريمة للمؤمنين ، ببيان الأحوال السيئة التي سيكون عليها الظالمون يوم القيامة ، ودعهم إلى الدخول في الدين الحق من قبل فوات الأوان ...

قال - تعالى - : : استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ...

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جانب من مظاهر فضله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا تهدي به من نضاه من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور .

٩ - ومن هذا العرض الإجمالي لآيات سورة الشورى ، نراها زاهرة

بالحديث عن الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

كما يراها زخرة - أيضا - بالحديث عن نعم الله على عباده ، وعن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذابين ، وعن مشاهد يوم القيامة وما فيه من أهوال ، وعن شبهات المشركين والرد عليها بما يدحضها

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

١٩٨٥/١٠/١١

التفسير

قال الله - تعالى - : « حم (١) عسق (٢) كذلك يُوحى إليك وإلى
والذين من قبلك الله العزيز الحكيم (٣) له ما في السموات وما في
الأرض وهو العلي العظيم (٤) تسكاد السمواتُ يفتطرن من فوقهن ،
والملائكةُ يسبحون بحمدهن ربهن ، ويستغفرون لمن في الأرض ،
ألا إن الله هو الغفور الرحيم (٥) والذين اتخذوا من دونه أولياء الله
حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل (٦) » .

سورة « الشورى » من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى . وقد
سبق أن ذكرنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب في المقصود بهذه الحروف ،
أنها وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين
تحداهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله :
هاكم القرآن تروونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ،
ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها
حروفكم . فإن كنتم في شك في أنه نزل من عند الله ، فهاتوا مثله أو عشر
سور من مثله ، أو سورة من مثله . . . فعجزوا وانقلبوا خامسين . وثبت أن
هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيره لهذه السورة آثارا وإمعية ، رأينا
أن نذكر بعضها للتنبيه على سقوطها . . .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد روى الإمام ابن جرير ما هنا أثر
غريبا عجيبا منكرا ، فقال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة

ابن اليمان - أخبرني عن تفسير قول الله - تعالى - : « حم عسق » . فأطرق ابن عباس ثم أعرض عنه

فقال حذيفة للرجل : أنا أنبتك بها ، قد عرفت لم كرمها ؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له : « عبد الإله » ، أو عبدا لله ، ينزل على نهر من أنهار الشرق ، تبني عليه مدينتان ، يشق النهر بينهما شقا . فإذا أذن الله في زوال ملكهم . . . بعث الله على إحداهما نارا ليلًا . . ثم يخسف الله - تعالى - بالآخرى . فذلك قوله « حم . عسق » .

يعنى : عزيمه من الله وقتنه وقضاء 'حم' و 'حم' ، وعين ، يعنى عدلا منه ، وسين : يعنى سيكون . وق ، يعنى : واقع بهاتين المدينتين ... ، (١)
والكاف في قوله - تعالى - : « كذلك » ، يعنى مثل ، واسم الإشارة يعود إلى ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من عقائد وأحكام وآداب ...

أى : مثل ما فى هذه السورة الكريمة من دعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، أوحى الله به إليك وإلى الرسل من قبلك ، لتبلغوه للناس كي يعتبروا ويتعظوا ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك » . . كلام مستأنف ، وأرد لتحقيق أن مضمون السورة ، موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة ، على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق ..

والكاف مفعول « يوحى » ، أى : يوحى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ..

وحى . بقوله : « يوحى » ، بدل « أوحى » ، للدلالة على استمراره فى الماضى ، وأن إحياء مثله ، عادته - تعالى - ..

رد العزيز الحكيم ، صفتان له - عز وجل - ، (١)

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح
والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب
والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ، (٢)
ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى لذاته فقال : له ما في السموات وما في
الأرض وهو العلي العظيم ،

أى : لقد أوحى الله - تعالى - إليك - أيها الرسول الكريم - بهذا القرآن
كما أوحى إلى الرسل من قبلك بما شاء من وحى ، وهو - سبحانه - العزيز
الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، والذى له جميع ما فى
السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً ونصرفاً .. وهو - سبحانه - العلي ،
أى : المتعالى عن الأشباه والانداد والأمثال والاضداد ..

العظيم ، أى : فى ذاته وفى صفاته ، وفى أفعاله ..

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر علو شأنه ، وكمال عظمته وجلاله
فقال : تكاد السموات يتفطرن من فوقهن .. ،

والفعل « تكاد » مضارع « كاد » الذى هو من أفعال المقاربة . وقوله
« يتفطرن » أى : يتشققن . والضمير فى قوله - تعالى - : « من فوقهن »
يعود إلى السموات ، باعتبار أن كل سماء تتفطر فوق التى تليها .

وهذا التفطر سببه الخشية من الله - تعالى - ، والخوف من جلاله وعظمته
فيكون المعنى : تكاد السموات يتشققن فيسقطن مع عظمهن « من فوقهن »
أى : من أعلاهن ، خشية ورهبة من عظمته - عز وجل - ، كما قال - تعالى -
وقه يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون

(١) تفسير الألوسى ج ٢٥ ص ١١ .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٣

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويصح أن يكون هذا التفطر سببه ، شدة الفرية التي افتراها المشركون على الله - تعالى - حيث زعموا أن الله ولدا ، كما قال - سبحانه - : « وقالوا اتخذ الله ولدا لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . . »

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم قال : « من فوقهم » ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلتها على الجلال والعظمة : فوق السموات ، وهى : العرش ، والكوسى ، وصفوف الملائكة ، المرتجة بالقسيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - من آثار ملكوته العظمى ، فلذا قال : « يتفطرن من فوقهم » : أى : يبتدىء الألفطار من جهتين فوقانية . أولان كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات ، فكان القياس أن يقال : من تحتهم ، من الجهة التي جاءت منها الكلمة .

ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق . كأنه قيل : يكذبون يتفطرون من الجهة التي فوقهم ، دع الجهة التي تحتهم ... ، (١)

وقوله - تعالى - : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، مؤكدا لما قبله من بيان علو شأنه - عز وجل - ، وسمو عظمته وجلاله .

أى : والملائكة يزهون ربهم - تعالى - عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، خوفا منه - سبحانه - ، ورهبة لذاته .

وقوله : « ويستغفرون لمن في الأرض ، معطوف على « يسبحون » . والمراد بمن في الأرض : المؤمنون بصفة خاصة ، لأنهم هم الذين يستحقون ذلك ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . . . »

أى : أن الملائكة ينزهون الله - تعالى - عما لا يليق به . ويطلبون
للمؤمنين من أهل الأرض عفو الله - تعالى - ورحمته وغفرانه .
وقوله : ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، تذييل قصد به الشناء على الله
- تعالى - بما هو أهله .

أى : ألا إن الله - تعالى - وحده ، هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء
من عباده . لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحاسبه على ما يفعل محاسب .
ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المشركين فقال : ، والذين اتخذوا من
دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ، .

أى : والذين اتخذوا من دون الله - تعالى - شفعاء وشركاء ليقرّبوهم إليه
ولقئ ، الله - تعالى - وحده رقيب عليهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب
يوم القيامة ، وما أنت - أي الرسول الكريم - عليهم بحفيظ أو رقيب على
أعمالهم ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزال هذا القرآن على الرسول - صلى الله
عليه وسلم - ، كما بين أنواعا من الأدلة عن كمال قدرته ، ووجوب إفراده
بالعبادة والخضوع ، ووجوب التحاكم إلى شريعته عند الاختلاف والتنازع ،
فقال - تعالى - :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا
وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ،
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
فَقُلْ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ
فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أَنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَمَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذَرُوكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَتَسَطَّرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) .

والمكاف في قوله - تعالى - : : وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا
في محل نصب على المصدرية ، واسم الإشارة يعود إلى مصدره أوحينا . . .
أى : ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح ، أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - قرآنا عربيا ، لا لبس فيه ولا غموض .
وقوله - سبحانه - لتنذر أم القرى ومن حولها ، ، تعليل لهذا الإيحاء .
والمراد بأم القرى : أهلها .

وسميت مكة بأم القرى ، لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها ، كاتبع الفرع الأصل ، أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل أم القرى ، ولتنذر به - أيضا - من حولها من أهل القرى الأخرى .

وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر في الإنذار ، لأنهم أقرب الناس إليه - صلى الله عليه وسلم - كما قال - تعالى - في آية أخرى : : وأنذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ .

وليس معنى هذا التخصيص أن رسالته - صلى الله عليه وسلم - كانت لإيهم وحدهم ، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته - صلى الله عليه وسلم - كانت إلى الناس كافة ، ومن هذه الآيات :

قوله - تعالى - : : قل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . وقوله - سبحانه - : : وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ، وقوله - عز وجل - : : وَاَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُنذِرَ بِهِ وَمَنْ يَبْلُغْ . . .

فهذه الآيات وغيرها تنطق وتشهد بأن رسالته - صلى الله عليه وسلم - كانت للناس جميعا ، بل للإنس وللجن ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : : وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . . . ،

وجلة ، وتنفذ يوم الجمع لا ريب فيه . . . ، معطوفة على ما قبلها . والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة ، لأنه اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون بين يدي - تعالى - للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب .

أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل مكة ومن حولها ، وتنذر الناس جميعا وتخوفهم من أهوال يوم القيامة ، الذي يجتمع فيه الخلائق للحساب .

وقوله : لا ريب فيه ، كلام معترض لتقرير ما قبله ونأكيده ، أو صلة ليوم الجمع .

وقوله : : فريق في الجنة وفريق في السعير ، بيان للنتيجة التي ترتبت على هذا الإنذار .

أى : بعد هذا الإنذار الذي أُنذرت به للناس - أيها الرسول الكريم - ، هناك فريق آمن بك وصدقك فكان مصيره إلى الجنة ، وهناك فريق أعرض عنك وكذبك ، فكان مصيره إلى النار .

وقوله - تعالى - : ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته .. ، بيان لكمال قدرته - عز وجل - .

أى : ولو شاء الله - تعالى - أن يجعل الناس أمة واحدة على الدين الحق لجمعهم كذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شيء ، ولكن - سبحانه - لم يشأ ذلك ليميز الخبيث من الطيب ، والمهتدى من الضال ..

أما المهتدون فهم أهل رحمته ورضوانه ، وأما الضالون فهم أهل عذابه

وغضبه فقله - تعالى - ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، بيان لمن عرفوا الدين الحق واتبعوه وقوله - سبحانه - : « والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير ، بيان لمن استحبوا العمى على الهدى .

قال الألوسى ما ملخصه : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته ... ، أى : أنه - تعالى - يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه ، ولا ريب في أن مشيئته - تعالى - لكل من الداخلين ، تابعة لاستحقاق كل فريق لعمله .

وقال : « والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير ، ولم يقل ويدخل من يشاء في عذابه ، الإيذان بأن الإدخال فى العذاب ، بسبب سوء اختيار الداخلين فيه ... » (١) .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول منى لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى .. » (٣) .

ثم أنكر - سبحانه - على أولئك الجاهلين اتخاذهم آلهة من دونه فقال : « أم اتخذوا من دونه أولياء ، فאלله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شيء قدير ، .

فأم بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، وهى لإفكار وقوع الشرك منهم ونفيه بأبلغ وجه .

أى : أن ما فعله هؤلاء المشركون من اتخاذهم آلهة من دونه - تعالى - شيء منكر بلغ النهاية فى قبحه وفساده ...

(١) تفسير الألوسى ج ٢٥ ص ١٤

(٢) سورة السجدة الآية ١٣

(٣) سورة الأنعام الآية ٢٥

قال صاحب الكشف : معنى الهمزة في د أم ، الإنكار . وقوله : فאלله هو الولي ، أي : هو الذي يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء في قوله : فאלله هو المولى ، جواب شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه . أي : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لا ولي سواه ... (١) .

« وهو يحيي الموتى ، أي : وهو - سبحانه - الذي في قدرته إعادة الحياة إلى الموتى بعد موتهم .

« وهو على كل شيء قدير ، أي : وهو - تعالى - وحده الذي لا يعجز قدرته شيء ، وما دام الأمر كذلك . فكيف اتخذ أولئك الجاهلون أولياء من دونه .

ثم وجه - سبحانه - أمره إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، بأن يرشد المؤمنين إلى وجوب تحاكمهم إلى شريعته - تعالى - إذا ما داب خلاف بينهم ، أو بينهم وبين أعدائهم ، فقال : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » . أي : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما اختلفتم في أمر من الأمور ، أن تحتكموا فيه إلى شريعة الله - عز وجل - ، وأن تقبلوا عن إذعان وطاعة حكمه - تعالى - .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ... » (١)

ولاسم الإشارة في قوله - سبحانه - : « ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه

(١) تفسير الكشف ح ٤ ص ٢١١

(٢) سورة النساء الآية ٥٩

أفئب ، يعود إلى الله - تعالى - الذى يجب أن يكون التحاكم إليه وحده عند الاختلاف .

أى : ذلك الحاكم العادل الذى لا حاكم يحق سواه ، ربى ، وغالى ورازقى . . . عليه ، وحده ، توكلت ، واعتمدت فى جميع شئونى ، وإليه أفئب ، أى : وإليه وحده أرجع فى كل أمورى

« فاطر السموات والأرض ، أى هو خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق ، من فطر الشيء إذا ابتدعه واخترعه دون أن يسبق إلى ذلك

« جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا . ، أى : جعل لكم - سبحانه - بقدرته من جنس أنفسكم أزواجا ، أى : نساء تجمع بينكم وبينهن المودة والرحمة ، كما قال - تعالى - : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . »

وقوله - سبحانه - : « ومن الأنعام أزواجا ، معطوف على ما قبله . أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، خلق - أيضا - للأنعام من جنسها إناثا ، ليحصل التوالد والتناسل والتعمير لهذا السكون .

وقوله - تعالى - « يذروكم فيه ، بيان للحكمة من هذا الجعل والخلق للأزواج .

والذرا : التكاثر والبث . يقال : ذرا فلان الشيء ، إذا بثه وكثره .

والضمير المنصوب فى قوله « يذروكم ، يعود إلى المخاطبين وإلى الأنعام ، على سبيل التغليب للعقلاء على غيرهم

والضمير فى قوله « فيه ، يعود إلى التزاوج بين الذكور والإناث المفهوم من قوله - تعالى - : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا . »

أى : يكثرتم وينمىكم بسبب هذا التزاوج الذى يحصل بين ذكوركم وإناثكم

حيث يتناول أحيانا - بين الذكر الواحد والأنثى الواحدة ، عدد كبير من الأولاد .

وقال - سبحانه - يدرككم فيه ، ولم يقل يدرككم به أى : بسببه ، للاستعارة بأن هذا التزاوج قد صار مثل المنبع والأصل للبث والتكثير

قال - تعالى - : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . ،

قال بعض العلماء : فإن قيل : ما وجه لإفراد الضمير المجرور فى قوله يدرككم فيه ، مع أنه على ما ذكرتم ، يعود إلى الذكور والامات من آدميين والأنعام ؟

فالجواب : أن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، رجوع الضمير بصيغته الافراد إلى المثنى أو الجمع بإعتبار ما ذكر .

ومنه قوله - تعالى - : دقل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله بأنيتكم به ، أى : بأنيتكم بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم ، (١)

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن الشبيه أو النظير . . . فقال ليس كمثله شيء ، أى : ليس شيء مثله - تعالى - لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فالكاف مزيدة فى خبره ليس ، وشيء ، اسمها أى : ليس شيء مثله : أو أن المكاف أصلية . فيكون المعنى : ليس مثله - تعالى - أحد لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال .

وذلك كقول العرب : مثلك لا يبخل ، يعنون : أنت لا قبخل على سبيل السكايبة ، قصدا إلى المبالغة فى نفي البخل عن المخاطب بنفيه عن مثله ، فيثبت انتفاؤه عنه بدليله .

والمقصود من الجملة الكريمة على كل تفسير : تنزيهه .. تعالى .. عن مشابهة خلقه في الذات أو الصفات أو الأفعال .

قال صاحب الكشف : قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفخوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلموا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عن يسد مسده ، وعن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه .

ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك : أنت لا تخفر ... (١)

وقوله - تعالى - : « وهو السميع البصير » ، أى : وهو - سبحانه - السميع لكل أحوال خلقه ، البصير بما يسرونه وما يعلنونه من أفعال .

« له مقاليد السموات والأرض ... » ، أى : له وحده مفاتيح خزائنها ، وله وحده - أيضا - ملك هذه الخزائن ، لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها . والمقاليد : جمع مقلاد أو إقليد وهو المفتاح .

« يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، أى : هو - سبحانه - الذى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه . « إنه - تعالى - بكل شئ عليم » ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله - تعالى - وكمال قدرته .

• • •

ثم أكد - سبحانه - الحقيقة التى افتتحت بها السورة الكريمة ، وهى وحدة الاديان فى جوهرها وأصولها ، وبين الأسباب التى أدت إلى اختلاف

الناس في عقائدهم ، وأرشد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أفضل الأساليب في الدعوة إلى الحق ؛ فقال - تعالى - :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوم إليه ، الله يحتي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من يندب » (١٣) وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بنبيائهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الدين أورتوا الكتاب من بعدم لفي شك منه مريب » (١٤) فلذلك فادع واستقيم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » (١٥) والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داخضة عند ربهم ، وعايهم أغضب ولهم عذاب شديد » (١٦) .

قال الفخرى الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما عظم وحيه إلى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - بقوله : كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك ... ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ... »

أى : شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحاً ومحمداً وإبراهيم وموسى وعيسى .. وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة ، والاتباع الكثيرة .. » (١)

والمراد بما شرعه - سبحانه - على ألسنته هؤلاء الرسل : أصول الأديان
التي لا يختلف فيها دين عن دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة
لله - تعالى - والإيمان بكتبه ورسوله وملائكته واليوم الآخر ، والتحلي
بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف ..

أما ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل
التيسير لهم ، ونحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل في
الأصول الثابتة في جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف
والأحوال .

ويؤيد ذلك قوله - تعالى - : لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا .. (١)
وقوله - سبحانه - حكاية عن عيسى - عليه السلام - : ولا حل لكم بعض
الذي حرم عليكم .. (٢)

والمعنى : سن الله - تعالى - لكم - يا أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -
من العقائد ومكارم الأخلاق ، ما سنه لنوح - عليه السلام - الذي هو أول
أولى العزم من الرسل ، وأول أصحاب الشرائع الجامعة ..

وشرع الله - تعالى - لكم - أيضا - ما أوحاه إلى نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم - من آداب وأحكام وأوامر ونواه ..

وشرع لكم كذلك ما وصى به - سبحانه - أنبياءه : إبراهيم وموسى
وعيسى ، من وصايا تتعلق بوجوب طاعة الله - تعالى - ، وإخلاص العبادة له ،
والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، وعحسن الشيم ..

وقوله - سبحانه - : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. ، تفصيل
وتوضيح لما شرعه - سبحانه - هؤلاء الكرام ، ولما أوصاهم به .

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٠ .

والمراد بإقامة الدين : إلزام أوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل فى كل ما جاءوا به من عند ربهم طاعة تامة ..

قال صاحب المكشاف : والمراد : إقامة دين الاسلام الذى هو توحيد الله - تعالى - وطاعته ، والايمان برسله وكتبه ، ويوم الجزاء ، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً ، ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة . قال الله - تعالى - : لئلا يجعلنا منكم شرعة ومنهاجا ..

وعمل : أن أقيموا ، إما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه ، وإما الرفع على الاستئناف ، كأنه قيل : وما ذلك المشروع ؟ فقيل : هو إقامة الدين (١) ...

أى : أوصاكم كما أوصى من قبلكم بالمحافظة على ما اشتمل عليه دين الإسلام من عقائد وأحكام وآداب ... وأصول أجمعت عليها جميع الشرائع الإلهية ، كما أوصاكم بعدم الاختلاف فى أحكامه التى لا تقبل الاختلاف أو التفرق ... ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من الدين الحق فقال : « كبر على المشركين ما تدعوم إليه » .

أى : شق وعظم على المشركين دعوتكم لإياهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وإلى ترك ما ألفوه من شرك ، ومن تقاليد فاسدة ورثوها عن آبائهم .

وقوله - تعالى - : « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » ، بيان لكمال قدرته - تعالى - ونفاذ مشيئته . والاجتناب : الاصطفاء والاختيار ...

أى : الله - تعالى - بإرادته وحكمته يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويهdy إلى الحق من ينيب إليه ، ويرجع إلى طاعته - عز وجل - ويقبل على عبادته ...

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت إلى اختلاف المختلفين في أمر الدين، وإلى تفرقهم شيئا وأحزابا فقال : « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . . » .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال والضمير في قوله « تفرقوا » يعود على كل الذين اختلفوا على أنبيائهم ، وأعرضوا عن دعوتهم . وقوله « بغيا » ، معمول لأجله ، مبين للمسبب الحقيقي للتفرق والاختلاف . أى : « وما تفرق المتفرقون في أمر الدين . وأعرضوا عما جاءتهم به رسلكم ، في كل زمان ومكان ، إلا من بعد أن علموا الحق ، ووصل إليهم عن طريق أنبيائهم ، ولم يحملهم على هذا التفرق والاختلاف إلا البغى الذي استولى على قلوبهم ، والحسد لرسول الله - تعالى - على ما آتاهم الله من فضله . »

فقوله - تعالى - : « إلا من بعد ما جاءهم العلم ، زيادة في ذمهم ، فإن الاختلاف بعد العلم بقبضه ، أدعى إلى الذم والتحقير ، لأنه يدل على أن هذا الاختلاف لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم وإصرار على الباطل . »

وقوله - تعالى - « بغيا بينهم ، زيادة أخرى تحمل كل عاقل على احتقارهم وفبذم ، لأن هذه الجملة الكريمة تدل على أن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان الدافع إليه ، البغى والحسد والعناد . »

أى : أن اختلافهم على أنبيائهم كان الدافع إليه الظلم وتجاوز الحد ، والحرص على شهوات الدنيا ولذائدها ، والخوف على ضياع شيء منها من بين أيديهم .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ورحمته بهذه الأمة فقال : « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم . . . » .

والمراد بهذه الكلمة : ما وعده الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - من أنه لن يهلك أمته بعذاب يستأصل شأفتهم ، كما أهلك قوم نوح وغيرهم ، ومن

أنه - تعالى - سيؤخر عذابهم إلى الوقت الذي يختاره ويشاؤه - سبحانه - .
 أى : ولولا كلمة سبقت من ربك - أيها الرسول - الكريم ، بعدم إهلاكهم
 بعقوبة تستأصل شأفتهم ، وتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى في علمه
 - تعالى - . لقضى بينهم ، بقطع دابرهم بسبب هذا الاختلاف الذى أدى
 بهم إلى الإعراض عن دعوتك ، وإلى عكوفهم على كفرهم .. :

« وإن الذين أوتوا الكتاب ، وهم أهل الكتاب المعاصرين لك من اليهود
 والنصارى ، من بعدهم ، أى : من بعد الذين سبقوهم في الاختلاف على أنبيائهم .
 « انى شك منه مريب ، أى : انى شك من هذا القرآن . ومن كل ما جنتهم
 به من عند ربك ، هذا الشك أوقعهم في الريبة وقلق النفس واضطرابها
 وتذبذبها ، ولذلك لم يؤمنوا بما جنتهم به من عند ربك .

ثم حض - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على المضى في دعوته
 فقال : « فذلك فادع ... » .

واسم الإشارة يعود إلى ما سبق الحديث عنه من ذم التفرق ، ومن الأمر
 بإقامة الدين ، أى : فلاجل ما أمراك به من دعوة الناس إلى إقامة الدين . وإلى
 النهى عن الاختلاف والتفرق ، من أجل ذلك فادع الناس إلى الحق الذى
 بعثناك به ، وإلى جمعهم على كلمة التوحيد ، التى تجعلهم يعيشون حية - أنهم
 آمنين مطمئنين .

« واستقم كما أمرت ، أى : واستقم على الصراط الذى كلفناك بالسيرة على
 نهجه ، والزم المنهج القويم الذى أمراك بالتزامه .
 « ولا تتبع أهواءهم ، أى : ولا تتبع شيئاً من أهواء هؤلاء الذين فرقوا
 دينهم وكابوا شيعا .

« وقل ، لهم بكل ثبات وقوة ، آمنت بما أنزل الله من كتاب ، أى : آمنت
 بكل ما أنزله - تعالى - من كتب سماوية . فالمراد بالكتاب : جنسه .

وأمرت لأعدل بينكم ، أى : وأمر ربى أن أعدل بينكم فى الحكم عند رفع قضاياكم إلى ، فإن العدل شريعة الله تعالى .

« الله ربنا وربكم ، أى : الله - تعالى - وحده هو الخالق لنا وإياكم ، وهو المنعم علينا وعليكم بالنعمة التى لا تحصى .

« ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، أى : لنا أعمالنا التى سيحاسبنا الله عليها يوم القيامة ، ولكم أنتم أعمالكم التى ستحاسبون عليها ، فنحن لانسال عن أعمالكم وأنتم لا تسألون عن أعمالنا .

« لاجحة بيننا وبينكم ، أى : لا احتجاج ولاخصومة بيننا وبينكم ، لأن الحق قد ظهر ، فلم يبق للجدال أو الخصام حاجة بيننا وبينكم .

« الله يجمع بيننا وإليه المصير ، أى . الله - تعالى - يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة ، وإليه وحده مصيرنا ومصيركم ، وسبجازى كل فريق منا ومنكم بما يستحقه من جزاء .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر جمل ، هذه الجمل الكريمة قد جاءت بأسمى ألوان الدعوة إلى الله - تعالى - بالحكمة والموعظة الحسنة .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يجادلون بالباطل فقال : « والذين يحتاجون فى الله من بعدما استجيب له ، حججهم داحضة عند ربهم ... »

وقوله - « داحضة ، من الدحض بمعنى الزلل والزوال . وأصله : الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام . يقال : دحضت رجل فلان ، إذازلت وزلقت .

أى : والذين يخاضعون فى الله أى : فى دينه وشريعته ، « من بعدما استجيب له ، أى : من بعد أن استجاب العقلاء من الناس لهذا الدين الحق ، واتبعوا رسوله .

« حجتهم داحضة عند ربهم ، أى : حجة هؤلاء المجادلين بالباطل ، زائلة وزاهقة » وعليهم غضب ، لا يقادر قدره من ربهم « ولهم عذاب شديد ، يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - حال الكافرين والمؤمنين بالنسبة ليوم القيامة : كما بين جانباً من فضله على عباده ، ومن رحمته بهم ، فقال - تعالى - :

« اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُفُتِهِ مِنْهَا ، وَمَالُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) »

والمراد بالكتاب في قوله - تعالى - : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، جنسه أى : جميع الكتب السماوية التى أنزلها على أنبيائه .

والمراد بالميزان : العدل والقسط الذى تضمنته شريعته - عز وجل - ، وأمر الناس بإقامته بينهم فى أمور معاشهم

وتسمية العدل بالميزان من باب تسمية الشئ باسم آله ، لأن الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس فى معاملاتهم .

قال - تعالى - : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ... » (١)

وقال - سبحانه - : الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعتها ووضع الميزان . أن لا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان

أى : الله - تعالى - هو وحده الذى أنزل جميع الكتب السماوية لهداية الناس ومنفعتهم ، وقد أنزلها - سبحانه - ملتبسة بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وأنزل كذلك شريعته العادلة ليتحاكم إليها الناس فى قضاياهم ومعاملاتهم وقوله - تعالى - : وما يدريك لعل الساعة قريب ، إرشاد إلى أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى -

أى : إن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده ، وأى شيء يحملك عالما بوقتها إذا كان مرد عليها إلى الله وحده ، ومع ذلك لعل وقت قيامها قريب .

وقال : « قريب » ولم يقل قريبة ، لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، أولان لفظ. فمفعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كما فى قوله - تعالى - : « إن رحمة الله قريب من المحسنين ،

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : يسألك الناس عن الساعة قل إنما علم عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ،

وقوله - تعالى - : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها بيان لموقف الكافرين والمؤمنين من الساعة .

أى : يستعجل الكافرون قيام الساعة ، يستعجل استنزاء وإستخفاف لجهاالتهم وإنطلاس بصائرهم ، أما الذين آمنوا بالله واليوم الآخر . فهم خائفون مشفقون من قيامها ، لما فيها من أهوال وحساب وثواب وعقاب ، ولأنهم لا يدرون ما الذى سيفعله الله - تعالى - بهم

فقروله - تعالى - مشفقون ، من الإشفاق ، وهو عناية مشوبة بخوف ، لأن المشفق يحب المشفق عليه ، ويخاف ما يلحقه . فإذا عدى بحرف « من » ، فعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدى بحرف « في » ، فعنى العناية فيه أظهر .

وقوله - سبحانه - : « يعلمون أنه الحق » ، تأكيد لإيمان المؤمنين بها . ومدح لهم على هذا الإيمان .

أى : أن المؤمنين وجلون من الساعة لما فيها من حساب . . ومع ذلك فهم لصدق يقينهم يعتقدون أنها آتية لا ريب فيها ، ويستعدون لاستقبالها بالإيمان العميق ، وبالعمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .

ثم وبخ - سبحانه - الذين يشكون فى البعث والنشور فقال : « ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد »

وقوله : « يمارون » من المماراة بمعنى المجادلة والمخاصمة ، يقال : مارى فلان فى الشئ . يمارى مراء ومماراة ، إذا خاصم وجادل .

أى : ألا إن الذين يخاصمون فى قيام الساعة خصام شك وريبة ، لفى ضلال بعيد عن الحق ، وفى ذهول شديد عن الصواب ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شئ ، ولأن حكمته قد إقضت أن يجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - أنه رءوف رحيم بعباده فقال : « الله لطيف بعباده » أى : حفى بهم ، عطوف عليهم ، يفيض عليهم جميعا من صنوف بره مالا تحصيه العقول ، ومن مظاهر ذلك أن لا يعاملهم بالعقوبة ، مع مجاهرتهم بمعصيته ، وأنه يرزقهم جميعا مع أن أكثرهم لا يشكرونه على نعمه .

وقوله « يرزق من يشاء » أى : يبسط رزقه ويوسع لمن يشاء من خلقه « وهو » سبحانه . القوى العزيز ، أى : وهو العظيم القوة الغالب على كل من سواه .

ثم حكى - تعالى - سنة التى لا تتخلف فقال : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ،

والحرث فى الأصل : مصدر بمعنى إلقاء البذور فى الأرض ، لتنبث ما ينفع الناس من زرع .

والمراد به ثمرات الأعمال ونتائجها ، تشبيها لها بثمرات البذور والمعنى : من كان يريد من الناس بأعماله ثواب الآخرة ، ورضا الله - تعالى - ضاعف الله - عز وجل - له الأجر والثواب والعطاء .

« ومن كان يريد حرث الدنيا ، لى : « ومن كان يريد بعمله شهوات الدنيا » ثوته منها ، إنما قدرناه له من حطامها وزخارفها

« وما له فى الآخرة من نصيب ، أى : وليس له فى الآخرة نصيب من خيراتها الباقية ، ونعيمها الدائم

وشبيهه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . » (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم ، وقارنت بين مصيرهم السيئ ، وبين المصير الطيب الذى وعد الله به المؤمنين ... فقال - تعالى - :

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمِ الدِّينَ مَلَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٢١) ترى

الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيَمْحُقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ... » أى : أَلَهُمْ ، والميم صلة الهمزة للتقريع .

وهذا متصل بقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، وقوله - تعالى - « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، . كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم لمة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله ؟ وإذا استحال هذا فإِنَّ الله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به ، » (٢٧)

فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب ، وتؤنبهم على جهالاتهم حيث أشركوا بالله - تعالى - دون أن يكون عندهم دليل أو ما يهتبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل

والمراد بكلمة الفصل فى قوله - تعالى - : « ولوكلية الفصل لقضى بينهم ، ما تفضل به - سبحانه - من تأخير العذاب المالحق عنهم

أى : ولولا حكمنا السابق بتأخير العذاب عنهم - فضلا منا وكرما - لقضى

الأمر بين هؤلاء الكافرين وبين المؤمنين ، بأن أهلكتنا الكافرين وأستأصلنا
شأقتهم في الدنيا ، ولكن شاء ربك أن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة

، وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، في الآخرة ، بسبب إصرارهم على ظلمهم
وموتهم على الكفر والشرك

ثم صور - سبحانه - أحوالهم السيئة يوم القيامة تصويراً مؤثراً فقال :
« ترى الظالمين مشفقين عما كسبوا وهو واقع بهم ،

أى : ترى - أيها العاقل - هؤلاء الظالمين يوم القيامة مشفقين عما كسبوا ،
أى خائفين خوفاً شديداً ، بسبب ما لم يكتسبوه في الدنيا من سيئات على رأسها
الكفر ، وهذا الذعر الشديد لن يفهمهم ، فإن العذاب واقع بهم لا محالة ، سواء
أخافوا أم لم يخافوا .

وقوله - تعالى - : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات
لهم ما يشاءون عند ربهم . . . » بيان للثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى -
 لعباده المؤمنين .

والروضات : جمع روضة ، وهو أشرف بقاع الجنة وأطيبها وأعلاها .
أى : هذا هو مصير الظالمين يوم القيامة ، أما الذين آمنوا وعملوا في دنياهم
الأعمال الصالحات ، فهم يوم القيامة يكونون في أشرف بقاع الجنات وأطيبها
وأسمأها منزلة ، حالة كونهم لهم ما يشاءون من خيرات عند ربهم

ذلك هو الفضل الكبير ، أى : الذى أعطيناه للمؤمنين من خيرات ،
هو الفضل الكبير الذى لا يعادله فضل ، ولا يماثله كرم

ولاسم الإشارة في قوله - تعالى - : « ذلك ، الذى يبشر الله به عباده
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

أى : ذلك الفضل الكبير ، هو البشارة العظمى ، والعطاء الجزيل ، الذى
يمنحه الله - تعالى - يوم القيامة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات

قال الآلوسى قوله : « ذلك ، أى : الفضل الكبير ، أو الثواب المفهوم من السياق ، هو الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أى : يبشر به لحذف الجار ثم العائد إلى الموصول ، كما هو عادتهم فى التدرىج فى الحذف ولا مانع من حذفهما دفعة . وجوز كون ذلك ، إشارة إلى التبشير المفهوم من « يبشر ، ... أى : ذلك التبشير يبشره الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » (١)

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يؤكد لأولئك المشركين من قومه ، أنه لا يسألهم أجرا على دعوته ، وإنما يسألهم المودة والمعاملة الحسنة لقرايته منهم فقال : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ... »

والضمير المجرور فى « عليه » يعود إلى التبليغ والتبشير والإنذار الذى يفعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - معهم « والقربى » مصدر كالقراءة . والخطاب لكفار قريش

والعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال : أولها : أن المراد بالقربى : الصلة والقراءة التى تربط بين الرسول وبين كفار قريش
أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين إني لا أسألكم على التبليغ أجرا ، لكن أسألكم أن تودوني لقرايتي فيكم ، فتكفوا عني إذا كنتم ، وتمنعوا عني أذى غيركم ، وتستجيبيوا لدعوتي ، فإن صلة القرابة والرحم التى بيني وبينكم توجب عليكم ذلك

فالقربى هنا : بمعنى القرابة وصلة الرحم . و « فى » للسببية بمعنى لام التعليل كما جاء فى الحديث الشريف : « دخلت امرأة النار فى هرة ، ولا شك أن منع أذى عنك - صلى الله عليه وسلم - بسبب قرابته فيهم ليس أجرا .

(١) تفسير الآلوسى ٢٥٠ ص ٣٠

وثانيها : أن المراد بالقربي هنا : أقاربه وعشيرته وعترته ، فيكون الممن لا أسألكم أجرا على دعوتي لكم إلى الخير والحق ، ولكن أسألكم أن تحفظوني في قرابتي وأهل بيتي ، بأن تحسنوا إليهم ولا تؤذوهم بأي نوع من الأذى .

ولا شك - أيضا - أن إحسانهم إلى أقاربه ، ليس أجرا منهم له على ذلك لأن الإحسان إلى الناس ، شيء قررته جميع الشرائع وتقتضيه مكارم الأخلاق .

وثالثها : أن المراد بالقربى هنا : التقرب إلى الله - تعالى - بالإيمان والعمل الصالح .

أى : لا أسألكم على التبليغ أجرا ، ولكن أسألكم أن تتقربوا إلى الله - تعالى - بما يرضيه بأن تتركوا الكفر والفسوق والعصيان ، وتدخلوا في الإيمان والطاعة لله - تعالى - .

وهذا الذى أطلبه منهم ، ليس أجرا على التبليغ ، لأن التقرب إلى الله بالطاعات فرض عليكم . وقد رجح العلماء القول الأول ، واستدلوا على هذا الترجيح بأحاديث منها : ما رواه البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن معنى قوله - تعالى - « إلا المودة فى القربى » ، فقال سعيد بن جبير : « قربى آل محمد » فقال ابن عباس : عجبت . إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

وقال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث وغيره ، وبهذا رأى قال مجاهد وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغيرهم (١) . وقال الإمام ابن جرير - بعد أن ساق هذه الأقوال - وأولى الأقوال فى ذلك

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٨٧ .

بالصواب ، وأشبهها بظاهر التنزيل ، قول من قال معناه : لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش ، إلا أن تودوني في قرابتي منكم ، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم .

ولمّا قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية ، لدخول « في » في قوله : « إلا المودة في القربى » .

ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قل إلا أن تودوا قرابتي ، أو تقربوا إلى الله ، لم يكن لدخول « في » في الكلام في هذا الموضع وجه معروف ولكن التنزيل إلا مودة القربى ، إن عني به الأمر بمودة قرابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو إلا المودة بالقربى إن عني به الأمر بالتودد والتقرب إلى الله - تعالى - .

وفي دخول « في » في الكلام أوضح الدليل على أن معناه إلا مودتي في قرابتي منكم (١) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على عباده فقال : « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » إن الله غفور شكور .

وقوله « يقترف » من القرف بفتح القاف وإسكان الراء . بمعنى المكسب ، يقال : فلان يقترف لعياله ، أى : يكسب لهم ما يكفيهم لأموال معاشهم .

ومن يكسب حسنة يفي بها التقرب إلى الله تعالى ، فضاع له - بفضلنا وإحساننا - ثوابها ، إن الله تعالى واسع المغفرة لعباده ، كثير الشكر للضائعين بأن يعطيهم من فضله أكثر مما يستحقون ويرجون .

ثم عادت السورة إلى توبيخ الكافرين على كبرهم وعنادهم ، فقال تعالى : « أم يقولون افتري على الله كذباً » .

والله اعلم

أى : بل يقولون إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد افترى على الله - تعالى - كذبا فيما يدعوننا إليه ، وفيما يتلوه علينا من قرآن ؟

ثم أجاب - سبحانه - عن افتراءهم هذا بقوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك ، أى : فإن يشأ الله - تعالى - يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب ، لأن افتراء الكذب على الله لا يكون إلا عن طبع الله على قلوبهم فهم لا يهتفون ، وأنت أيها الرسول الكريم مبرأ ومنزه عن ذلك .

فالمقصود من الجملة [الكريمة] تنزيه ساحة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قاله المشركون في شأنه ، وإثبات أن افتراء الكذب ، إنما هو من شأنهم لا من شأنه - صلى الله عليه وسلم - .

قال صاحب الكشاف : قوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك ، أى : فإن يشأ الله - تعالى - يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب ، فإنه لا يجترى على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم :

وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه في البعد مثل الشرك بالله ، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم . ومثال هذا : أن يخون بعض الأمانة فيقول : لعل الله خذاني ، لعل الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد لإثبات الخذلان وعمى القلب ، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ... » (١)

وقوله - سبحانه - : « ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور ، كلام مستأنف غير داخل في جواب الشرط ، لأنه - تعالى - يحمو الباطل مطلقا ، وسقطت الواو من الفعل « يمح » ، لفظا لانتفاء الساكتين ، وخطا حملا له على اللفظ ، كما كتبوا « سندع الزبانية » ، فهو مرفوع لا مجزوم ، ويؤيده عطف « ويحق » ، المرفوع عليه .

أى : من شأن الله - تعالى - أن يمحو الباطل ، وأن يثبت الحق بكلماته الفاصلة ، وقضائه العادل ، كما قال - تعالى - : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ... »

« إنه ، سبحانه - « عليم بذات الصدور ، أى : مطلع على ما تخفيه الصدور من أسرار ونوايا ، لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ثم تحدثت السورة الكريمة عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق بحياتهم ومعاشهم . وفيما يتعلق بمظاهر لطفه بهم ، وفضله عليهم ، فقال - تعالى - :

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلَسَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْفَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ

من يحيص (٢٥) فما أوتيتُم من شيء فتأع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦) .

قال الجمل في حاشيته : قوله - تعالى - : وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ... ، قال ابن عباس : يريد أوليائه وأهل طاعته . والتوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كان معصيته بين العبد وربّه فلها ثلاثة شروط : الإقلاع عن المعصية ، والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها .
وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدم ، أضيف إلى ذلك : أن يبرأ من حق صاحبها ... (١)

والمعنى : وهو - سبحانه - وحده الذى يقبل التوبة من عباده التائبين إليه ، شفقة عليهم ، ورحمة بهم . بأن يكفر سيئاتهم ، ولا يعاقبهم عليها . والقبول يعنى بمن ، لتضمنه معنى الإبانة والقطع ، ويعنى بمن لتضمنه معنى الأخذ كما فى قوله - تعالى - : وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ... ،

وعنى بمن هنا الإشارة إلى تجاوزه سبحانه عن خطايا عباده وقوله - تعالى - : ويعفو عن السيئات ، تأكيد لما قبله وتقرير له . أى : أنه عز وجل يقبل التوبة من عباده التائبين ، وفضلا عن ذلك ، يعفو عن سيئاتهم ، ويستمرها عليهم ، بل ويحوّلها - بفضلّه إلى حسنات ، كما قال - تعالى - : لا من ناب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وقوله - سبحانه - : ويعلم ما تفعلون ، تحذير من التماهى فى تأخير التوبة وفى إقتراف ما نهى عنه ، فكانه - تعالى - يقول : لقد فتحت لكم باب التوبة والعفو ، فأقبلوا على طاعتي ؛ واركعوا معصيتي ، فإني عليم بما تفعلونه من خير أو شر ، وسأجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ح ٤ ص ٦٣

و ما ه في قوله « ويعلم ما تفعلون » ، موصولة ، والمائد محذوف . أى : يعلم الذى تفعلونه دون أن يخفى عليه تعالى شىء منه .

وقوله « تعالى » : « ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضاه .. » ، معطوف على قوله : « يقبل التوبه عن عباده .. » .

أى : ويستجيب سبحانه للذين آمنوا دعاهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه ، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما سألوا .

قال الألوسى ماملخصه : والموصول مفعول بدون تقدير شىء ، بناء على أن « يستجيب » يتعدى بنفسه ، كما يتعدى باللام ، نحو شكرته وشكرت له ، أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال ، والأصل : ويستجيب للذين آمنوا ... » (١)

« والكافرون لهم عذاب شديد » أى : هذا هو حال المؤمنين يجيب لهم .. سبحانه .. دعاهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه ... أما الكافرون الذين ستروا نعمه ، وجحدوا فضله ، فلهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا هو .. سبحانه .. .

ثم بين - سبحانه - جانباً مما اقتضته حكمته فى تدبير أمور عباده فقال : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ... » .

والبغى . تجاوز الحد فى كل شىء . يقال بغى الجرح . إذا أظمن ما بداخله من دم أو غيره .

وبغى القوم ، إذا تجاوزوا حدودهم فى العدوان على غيرهم .

أى : ولو بسط الله - تعالى - الرزق لعباده ، بأن وسعه عليهم جميعاً توسعة فوق حاجتهم ، لبغوا فى الأرض ، أى : لتجاوزوا حدودهم ، ولتكبروا

فيها، ولطفوا واعتوا وتركوا الشكر لنا، وقالوا ما قاله قارون : « إنما أوتيته على علم عندي » .

وقوله : « ولكن ينزل بقدر ما يشاء » ، بيان لما اقتضته حكمته - تعالى - .
 أى : أن حكمته - تعالى - قد اقتضت عدم التوسعة في الرزق لجميع عباده ، لأن هذه التوسعة تحملهم على التكبر والغرور والبطر ، لذا أنزل الله - تعالى - لهم الرزق بتقدير محدد اقتضته حكمته ومشيئته ، كما قال - سبحانه - : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وقوله - سبحانه - : « إنه بعباده خبير بصير » ، تعليل لتنزيله الرزق على عباده بتقدير وتحديد دقيق .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من إزال الرزق على عباده بقدر ، لأنه - تعالى - خبير بخفايا أحوال عباده ، وبطوايا نفوسهم ، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه .

قال صاحب الكشف : أى أنه - تعالى - يعلم ما يؤول إليه حالهم ، فيقدر لهم ما هو أصلح لهم ، وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويبغى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، كما توجبها الحكمة الربانية ، ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

ولا شبهة في أن البغى مع الفقر أقل ، ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغى والإحجام عنه ، فلو هم البسط ، لغلب البغى حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن ، (١)

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وكلها تدل على وحدانيته وكال قدرته فقال - تعالى - : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا . . . »

أى : وهو - سبحانه - الذى ينزل المطر على عباده، من بعد أن انتظروه فترة طويلة، حتى ظهرت على ملاحظهم علامات اليأس، وبدأت وجوههم أمارات القنوط .

وقوله - تعالى - « وينشر رحمته ، معطوف على « ينزل » ، أى : ينزل الأمطار بعد « يأس الناس من نزولها » ، وينشر رحمته عليهم عن طريق ما ينتج عن هذه الأمطار من خيرات وبركات وأرزاق .

« وهو ، - سبحانه - « الولى ، أى : الذى يتولى عباده برحمته وإحسانه الحميد ، أى : المحمود على فعله ، حيث أنزل على عباده الغيث بعد أن يسئوا منه . والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تصور جانباً من فضل الله على عباده بطريقة محسوسة ، فالتعبير بالغيث يشعر بالغوث والنجدة بعد أن فقد الناس الأمل فى ذلك ، والتعبير بالقنوط يشعر بأن آتار الضيق قد ظهرت على وجوههم ، والتعبير بقوله - تعالى - « وينشر رحمته » ، يشعر بإنتشار الرجاء والفرح والإنشراح على الوجوه بعد أن حل بها القنوط

والتعبير بقوله - تعالى - : « وهو الولى الحميد ، يشعر بقرب الله - تعالى - من عباده ، بوجوب شكره على ما أعطى بعد المنع ، وعلى ما فرج بعد الضيق .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان كمال قدرته فقال : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ... »

والمراد بالآيات هنا : الدلائل والعلامات الواضحة الدالة على كمال قدرته - عز وجل -

وقوله : « وما بث .. معطوف على « خلق السموات والأرض » ، أى : ومن العلامات الناصعة الدالة على كمال قدرته - تعالى - خلقه للسموات وللأرض بتلك الصورة الباهرة البديعة التى تشاهدها بأعيننا، وخلقته - أيضاً -

لما بث فيهما من دابة ، لما نثر وفرق فيهما من دواب لا يعلم عددها إلا الله - تعالى - .

والدابة : لاسم لكل ما يدب على وجه الأرض أو غيرها . وظاهر الآية الكريمة يفيد وجود دواب في السموات
قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم جاز ، فيهما من دابة ، والدواب في الأرض وحدها ؟

قلت : يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان متلبسا ببعضه كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد ، أو شجاع بطل ، وإنما هو في شئ من أنفادهم .

وجوز أن يكون للملائكة - عليهم السلام - مشى مع الطيران ، فيوصفوا بالديب كما يوصف به الأنامى ، ولا يبعد أن يخلق - سبحانه - في السموات حيوانا يمشى فيها مشى الأنامى على الأرض ، سبحانه الذى خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق . ، (١)

وقوله - تعالى - : وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ، بيان لكمال قدرته - عز وجل - .

أى : وهو - سبحانه - قادر قدرة تامة على جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء .

كما قال - تعالى - في آية أخرى : قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ،

ثم بين - سبحانه - أن ما يصيب الناس من بلاء إنما هو بسبب أعمالهم فقال : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ،

أى : وما أصابكم - أيها الناس - من بلاء ، كمرض وخوف وفقر ، فإنما هو بسبب ما اكتسبتموه من ذنوب ، وما اقترقتموه من خطايا . وبعبقو - سبحانه - عن كثير من السيئات التي ارتكبتموها ، فلا يحاسبكم عليها رحمة منه بكم .

قال - تعالى - : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ... » (١)

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخاديد والآثار منها ما رواه ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ، وحدثنا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ... » ، وسأفهمها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ، فبما كسبت أيديكم ، والله - تعالى - أحلم من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فاقه أكرم من أن يعود بعد عفوّه » (٢)

ثم حذر - سبحانه - الناس من عقابه فقال : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ،

أى : وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على الهرب من أى مكان من الأرض أو في غيرها ، لأن قدرتنا لا يعجزها أن تأتى بكم من أى مكان كنتم فيه ، وليس لكم غير الله - تعالى - من ولى يتولى أموركم ، أو نصير يدفع عنكم عدايه .

(١) سورة فاطر الآية ٤٥

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٥

قال - تعالى - : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك
فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم »

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من دلائل قدرته عن طريق ما يشاهده
الناس في البحر ، فقال - تعالى - : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام »

والجوار : جمع جارية والمراد بها السفينة لأنها تجرى في البحر . وهي
صفة لموصوف محذوف .

والأعلام : جمع علم وهو الجبل الكبير ، وأصله الأثر الذي يعلم به الشيء .
كعلم الطريق ، وعلم الجيش ، وسمى الجبل علماً لأن الناس يسترشدون به في
سيرهم

أي : ومن آياته - سبحانه - الدالة على كمال قدرته ، هذه السفن الجارية في
البحر ، حتى لا تكأنها من ضخامتها وعظمتها الجبال الشاهقة

« إن يشأ » - سبحانه « يسكن الريح ، التي بسببها تجرى السفن في البحار
« فيظللن رواكد على ظهره » أي : فيصرن ثوابت على ظهر البحر لا يجرين .
يقال : ركد الماء ركوداً - من باب قعد - إذا سكن ، فهو راكد . وكل شيء
ثابت في مكانه فهو راكد .

« إن في ذلك » الذي ذكرناه لكم من السفن المستخرة في البحر بأمره
- تعالى - « لآيات » عظيمة « لكل صبار شكور » أي : لكل إنسان قد تحلى
بصفى الصبر والشكر لله - تعالى - ، حي صارتا هاتان الصفتان سجية من
سجاياه ... « أوبقوهن بما كسبوا » أي أوبهلهن ويغرقهن بسبب ما كسبه
الراكبون في هذه السفن من ذنوب وخطايا

يقال : أوبق فلان فلاناً إذا حبسه أو أهلكه . ووبق فلان - كوهود ووجل -
وبوقاً إذا هلك .

وهو معطوف على قوله « يسكن » وكذلك قوله « ويعطف »

أى : إن يشأ ، سبحانه - يسكن الريح ففضل السفن ساكنة على ظهر البحر
أو إن يشأن يرسل الريح عاصفة بتلك السفن بمن فيها ، أو إن يشأ ينج ناسا
بالعفو عنهم .

قال صاحب الكشف : « يوبقهن ، يهلكهن . والمعنى : أنه إن يشأ يتلى
المسافرين في البحر بإحدى بلبتين : إما أن يسكن الريح فيركد الجوارى على
ظهر البحر ، ويمنعن من الجرى ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إضرافا
بسبب ما كسبوا من الذنوب » ويعف عن كثير ، منها .

فإن قلت : علام عطف « يوبقهن » ؟ قلت : على « يسكن » لأن المعنى :
إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيفرقن بعصفها

فإن قلت : فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه ؟
قلت : معناه : أو إن يشأ تهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم

فإن قلت : فمن قرأ « ويعفو » ؟ قلت : قد استأنف الكلام ، (١)

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شيء فقال : ويعلم الذين يجادلون
في آياتنا ما لهم من محيص ، والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . فقال :
خاص فلان عن الشيء ، إذا حاول الفرار منه .

وقراءة الجمهور ينصب « يعلم » أنه منصوب على فعل مقدر . أى : فعل
ما فعل - سبحانه - لينتقم من الظالمين ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا الدالة
على وحدانيتنا وقدرتنا ... أنهم لا محيص لهم ولا مهرب من عذابنا ، بسبب
سجدهم بالباطل ليدحضوا به الحق

ثم بين - سبحانه - أن متاع الدنيا مهما كثر فهو إلى زوال ، فقال : وفي

أوتيتهم من شئ. فتنازع الحياة الدنيا أى : فما أعطيتهم من شئ. من متع الحياة الدنيا كالغنى والصحة والجاه . فإنما هو متاع زائل من متع الحياة الدنيا . وما عند الله ، من عطاء وثواب فى الآخرة ، خير وأبقى ، أى : هو خير فى ذاته من متاع الحياة الدنيا ، وأبقى منه زمانا حيث لا يزول ولا يفنى .
 قوله : « للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » متعلق بقوله « خير وأبقى » ،
 أى : هذا الذى ذكرناه لكم من نعم الآخرة خير وأبقى ، للذين آمنوا بالله - تعالى - إيماناً حقيقياً ، وللذين هم يتوكلون ولا يعتمدون إلا على ربهم وحده ، لا على غيره أصلاً .

• • • • •

وبعد هذا البيان المفصل للبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وللنعم التى أسبغها - سبحانه - على عباده . . . بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان الصفات الطيبة والمناقب الحميدة ، التى وفق الله - تعالى - عباده المؤمنين للتجلى بها ، فقال :

« وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنْ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَلَا وِلَايَةَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » ، أولئك لهم عذاب أليم (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) » .

وقوله - تعالى - : « وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ . . . » معطوف

على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وما عند الله خير لأبقي للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » . أو بدل منه .

وكبائر الإثم : هي الذنوب الكبيرة التي يقرب عليها إقامة الحد على فاعلها أو الوعيد الشديد من الله - تعالى - لمرتكبها ، كقتل النفس ، وتعاطي الربا ، وما يشبه ذلك من الكبائر

والفواحش : جمع فاحشة ، وهي من جملة كبائر الإثم ، إلا أن الله - تعالى - خصها بالذكر من باب عطف الخاص على العام ، اهتماما بها ، وأكثر ما تطلق الفواحش على جريمة الزنا .

كما قال - تعالى - : « ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . والمعنى : وما عند الله - تعالى - من ثواب في الآخرة خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وللذين يجتنّبون ارتكاب كبائر الآثام ، كقتل النفس ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجتنّبون كذلك ما فحش وعظم قبضه من الذنوب ، كالزنا والبخل بما آتاهم الله من فضله ..

وليس المراد من هذه الآية الكريمة فتح الباب لارتكاب صفات الآثام والذنوب ، بل المراد بيان فضل الله - تعالى - على عباده ، ورحمته بهم ، وبيان أن اجتناب كبائر الإثم والفواحش ، يؤدي - بفضل الله وكرمه - إلى غفران صفات الذنوب ، كما قال - تعالى - : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ، صفة أخرى من صفاتهم الكريمة .

أي : ما عند الله خير وأبقى ، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وللذين يجتنّبون كبائر الإثم والفواحش وللذين من صفاتهم - أيضا - أنهم يتجاوزون عن الشخص الذي أغضبهم ، ويصفحون عنه ، ويحلمون عليه .

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية في تفسير سورة النساء ص ١٦٦ .

وخص حالة غضبهم بالغفران ، لأن هذه الحالة لا يقدر عليها إلا أصحاب العرائم القوية ، إذ من المعروف أن الإنسان في حالة غضبه ، كثيرا ما يفقد صوابه ، ويغلب عليه عدم السيطرة على مشاعره ، فإذا ما استطاع أن يكظم غيظه في حالة غضبه ، كان ذلك دليلا على قوة إيمانه ، وعلى ملكة لتوازن نفسه . قال صاحب الكشف : هم يغفرون ، أى : هم الإخصاء بالغفران في حال الغضب ، لا يقول الغضب أحلامهم كما يقول حلوم الناس . والمجيء بلفظ هم ، وإيقاعه مبتدأ وإسناد ، يغفرون ، إليه ، لهذه الفائدة . ومثله هم ينتصرون ، (١) .

ثم ذكر - سبحانه - صفات كريمة لهم فقال : والذين استجابوا لربهم ، أى : أطاعوه في كل ما أمرهم به ، أو نهىهم عنه ..

« وأقاموا الصلاة ، أى : حافظوا عليها ، وأدوها في أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .

« وأمرهم شورى بينهم ، أى : شأنهم أنهم إذا حدث بينهم أمر هام يحتاج إلى المراجعة والمناقشة ، تجمعوا وتشاوروا فيما هو أنفع وأصلح .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وأمرهم شورى بينهم ، أى : يتشاورون في الأمور .

والشورى مصدر شاورته - والتشاور : استخراج الرأى من الغير ..

قال الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم ..

وقال ابن العربي : الشورى : ألفة للجماعة ، ومسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب .

وقد قال الشاعر الحكيم :

إذا بلغ رأى المشورة فاستعن برأى لبيب أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة فإن الخوافى قوة للقوادم (١)

وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستشير أصحابه فى الأمور التى تتعلق بالحروب وما يشبهها من الأمور الدنيوية ، ولم يكن يشاورهم فى الأحكام . لأنها منزلة من عند الله - تعالى - . .

فأما الصحابة فكانوا يشاورون فى الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة . . فقد تشاوروا فى الخلافة بعد موت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى ميراث الجدة ، وفى حروب المرتدين . . (٢)

وقوله : وما رزقنا ينفقون ، أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين - أيضا - أنهم بما أعطيتهم من الرزق ، يتصدقون على غيرهم من المحتاجين .
والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، أى : أن من صفاتهم كذلك أنهم إذا بغى عليهم باغ ، أو ظلمهم ظالم ، أو اعتدى على كرامتهم أو على دينهم معتد ، فإنهم لا يخضعون له . ولا يذلون أمامه ، وإنما ينتصرون لدينهم ولكرامتهم ، بأن يقابلوا بغيه وعدوانه ، بما يردعه ويجعله يخشى إصابتهم بأذى . .

وقوله - تعالى - : د جزاء سيئة سيئة مثلها . . ، بيان لوجوب عدهم تجاوز الحد عند دفع الظلم .

أى : أن الله - تعالى - يأمركم أنكم إذا أردتم الانتصار من الباغى ، فعليكم

(١) الخوافى : الريش الذى يختفى عندما يضم الطائر جناحيه . والقوادم : الريش الظاهر الكثير .

(٢) راجع تفسير القرطبى ١٦٥ ص ٣٦ .

أن تقابلوا بغيه وظلمه وعدوانه بمثله بدون زيادة منكم على ذلك ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين ، » .

قال الشوكاني : ذكر - سبحانه - المغفرة عند الغضب في مرض المدح فقال : « إذا ما غضبوا هم يغفرون ، » ، كما ذكر الانتصار على الباغي في مرض المدح - أيضا - ، لأن التذلل لمن بغي ، ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال - سبحانه - « وقه العزة ورسوله وللؤمنين ، » . فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

قال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترى عليهم السفهاء ، . ولكن هذا الانتصار مشروط بالاعتصاف على ما جعله الله - تعالى - له ، وعدم مجاوزته ، كما بينه - سبحانه - عقب ذلك بقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فبين - سبحانه - أن العدل في الانتصار ، هو الاعتصاف على المساواة ... (١) »

ثم بين - سبحانه - ما هو أسى من مقابلة السيئة بمثلها فقال : « فن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، » .

أي : فن عفا عن أساء إليه ، وأصلح فيما بينه وبين غيره ، فأجره كائن على الله - تعالى - وحده ، وسيعطيه - سبحانه - من الثواب ما لا يعلمه إلا هو - عز وجل .

« إنه ، تعالى لا يحب الظالمين بأي لون من ألوال الظلم .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، » .

ثم أكد - سبحانه - ماسبق أن يفنه من أن دفع بغى الباغى أمر محمود ، فقال تعالى : « ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » .
واللام فى قوله « ولئن انتصر » هى لام الابتداء . وقوله « بعد ظلمه » مصدر مضاف لمفعوله « ومن » شرطية ، وجوابها « فأولئك ما عليهم من سبيل » والمراد بالسبيل : المؤاخذه والجرح .

أى : أن من انتصر لدينه وعرضه ، بعد أن ظلمه الظالم له ، فأولئك الذين يفعلون ذلك ، لا يؤاخذون من أحد ، ولا يلامون من غيرهم ، لأنهم باشروا حقهم الذى شرعه الله - تعالى - لهم ، وهو مقابلة السيئة بمثلها .

ثم بين - سبحانه - على من تقع المؤاخذه والمعاقبة فقال : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون فى الأرض بغير الحق » .

أى : إنما المؤاخذه والمعاقبة كائنة على الذين يظلمون غيرهم من الناس ، ويتكبرون ويتجاوزون حدودهم فى الأرض بغير الحق .

وقيد - سبحانه - البغى فى الأرض بكونه بغير الحق . لبيان أنه لا يكون إلا كذلك ، إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح ، إذ تجاوز الحد فى فساد . فهذا القيد إنما هو لبيان الواقع ، وللتفجير منه .

« أولئك لهم عذاب أليم » ، أى : أولئك الذين من صفاتهم الظلم والبغى لهم عذاب أليم ، بسبب ما اجتروه من ظلم وبغى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الكريمة للمؤمنين فقال : « ولئن صبر » وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور .

أى : وللإنسان الصابر على الأذى . الذى يصفح عن أساءة إليه ، الشواب الجزيل ، والعاقبة الحسنة ، لأن ذلك صبر والمغفرة منه ، لمن الأمور التى تدل على علو الهمة ، وقوة العزيمة . . .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد مدحت حتى المؤمنين

الصادقين بجملة من الصفات الحميدة ، التي تعتبر على رأس الصفات الأساسية ، لكل أمة تريد أن تنال الظفر والسعادة في دنياها وآخرتها .

وبعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة ، وعما أعدّه سبحانه لهم من ثواب ، جاء الحديث عن الظالمين وما أعدّ لهم من عقاب ، وأمرهم - سبحانه - بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتي يوم الحساب ، الذي لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير ، فقال تعالى :

« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ صَبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) » .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ... » أي : ومن يخذله الله تعالى ويبعده عن طريق الهداية بسبب زيغهِ وإيثاره الفى على الرشد ، فليس لهذا الضال من فاصر ينصره بعد الله - تعالى - .

فالمراد بالاضلال هنا ، ما هو ضد الهداية والتوفيق للخير . والضمير في قوله « من بعده » يعود إلى الله - عز وجل - . وقيل : يعود للخذلان المفهوم من قوله « يضل » .

ثم بين - سبحانه - حال الظالمين عندما يعرضون على النار فقال : « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل » .

أى : وترى - أيها العاقل - الظالمين حين رأوا العذاب المعد لهم يوم القيامة ، ترام في نهاية الحسرة والذلة ، ويقولون في ندامة وانكسار : هل إلى « مرد ، أى : مرجع إلى الدنيا من سبيل أو طريق ، فتعمل غير الذى كئنا نعمل » .

وقوله - سبحانه - : « وترام يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » ، يبان لحالهم عندما يعرضون على النار بعد بيان ما يقولونه عند رؤيتهم لها .

أى : أنهم عند رؤيتهم لجحيم يقولون هل من طريق للهرب من هذا العذاب لى نرجع إلى الدنيا فنؤمن بالله - تعالى - ونعمل صالحا ، فلما وجدوا أنه لا طريق إلى ذلك زاد انكسارهم وذلمهم و ترام - أيها العاقل - يعرضون على النار عرضا مؤلما ، فهم خاضعون متضائلون من شدة ما أصابهم من ذل ، يسترقون النظر إلى النار من طرف خفى ، أى : من عين لا تكاد تتحرك من شدة ضعفها وهوانها ...

قال صاحب الكشف : « خاشعين ، متضائلين متقاصرين بما يلحقهم » من الذل - متعلق بخاشعين - « ينظرون من طرف خفى » ، أى : يبتدىء نظرم من تحريك لأجفانهم ضيف خفى بمسارفته كما ترى المصبور - أى المحبوس للقتل - ينظر إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ، ويملا عينيه منها ، كما يفعل الناظر إلى الشيء المحبوب ... » (١)

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المؤمنون الفائزون برضا الله - تعالى - بعد رؤيتهم لأحوال هؤلاء الظالمين فقال : « وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم » .

أى : وقال المؤمنون - على سبيل التحدث بنعمة الله عليهم - بعد أن رأوا
انكسار الظالمين وذلتهم ... : قالوا هؤلاء هم الخاسرون الذين خسروا
أنفسهم يوم القيامة بتريئهم للعذاب العظيم ، وخسروا أنفسهم لأنهم إن كانوا
معهم فى النار فلن ينفعهم بشئ . . . وإن كانوا فى الجنة فلن يستطيعوا
الوصول إليهم ..

ألا أن ذلك العذاب المقيم الذى حل هؤلاء الظالمين هو الخسران التام
الكامل الذى لا خسران أفضح منه .

« وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . . . ، أى : لم يكن هؤلاء
الظالمين من نصراء أو شفعاء يحولون بينهم وبين العذاب الذى أعده - سبحانه -
لهم بسبب ظلمهم وكفرهم .

« ومن يضل الله ، أى : ومن يضل الله - تعالى - عن طريق الهداية
والرشاد ، فما له من سبيل ، أى : فما له من طريق إلى الهدى أو النجاة .

ثم يوجه - سبحانه - أمره إلى هؤلاء المعاندين ، يدعوهم إلى الاستجابة للحق
من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا شك فى مجيئه ، ... فيقول : « استجبوا
لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ... ،

أى استجبوا - أيها الناس - لدعوة الحق التى دعاكم إليها ربكم وخالفكم ،
عن طريق الرسول الذى أرسله - سبحانه - إليكم ، ولتكن استجابةكم عاجلة فى
هذه الدنيا ، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لن يستطيع أحد أن يرده أو
يدفعه ، بعد أن حكم - سبحانه - بمجيئه ، وجعل له أجلاً محدداً لا يتخلف عنه
ثم بين - سبحانه - حالهم عند مجيئ هذا اليوم فقال : « ما أنتم من ملجأ
يو مئذ وما لكم من نكير ،

والملاجئ : هو المكان الذى يلجأ إليه الإنسان عند الشدائد والكروب
لانتقامها . والتكبير بمعنى الإنكار

أى : ليس لكم فى هذا اليوم ملجأ تلتجئون اليه من العذاب، وليس لكم القدرة على إنكار شىء مما إجتزأتموه فى الدنيا من الكفر والعصيان ، لأنه مسجل عليكم ، فما نزل بكم من عذاب بسبب كفركم وإعراضكم عن الحق ، شىء أنتم تستحقونه ، ولن نجدوا يوم القيامة من ينكر إستحقاقكم لهذا العذاب .

قال الألوسى: قوله - تعالى - وما لكم من نكير، أى: إنكار على أنه من أنكر على غير القياس . ونفى ذلك مع قوله - تعالى - حكاية عنهم . والله ربنا ما كنا مشركين ، تنزيلا لما يقع من إنكارهم منزلة العدم ، لعدم نفعه وقيام الحجة ، وشهادة الجوارح عليهم . أو يقال : إن الأمرين باعتبار تعدد الأحوال والمواقف ... (١)

ثم بين - سبحانه - وظيفة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال : فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ ... ،

أى : فإن أعرض هؤلاء الظالمون عن دعوتك - أيها الرسول الكريم - ، فلا تحزن لذلك ، فإننا ما أرسلناك لتكون رقيبا على أفعالهم ، ومكرها لهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك لتبلغ دعوة ربك إليهم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - : وإنا إذا ألقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وجنسه الشامل للجميع . والمراد بالرحمة : ما يشمل القنى والصحة وغيرهما من النعم

أى : وإنا إذا أعطينا ومنحنا الإنسان بفضلنا وكرمنا نعمة كالمال والولد والجاه . فرح بها وإن شرح لها

« وإن تصبهم ، أى : الناس ، سيئة ، من بلاء أو مرض أو خوف أو فقر ، بما قدمت أيديهم ، أى : بسبب ما لاكتسبته أيديهم من المعاصى والسيئات حزنوا وامتنعوا »

وقوله ، فإن الإنسان كفور ، تعليل لجواب الشرط المحذوف ، أى : وأن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم نسوا نعمنا وقنطوا ، فإن المكافر كثير الكفرا والجهود لنعم خالقه - عز وجل - . أما من آمن وعمل صالحا فإنه يشكر ربه عند النعم ، ويصير عند البلاء والنقم

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة المكرمة بالحديث عن مظاهر قدرته التي لا يسجزها شيء ، وعن نفاذ مشيئته وحكمته ، وعن فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث أوحى إليه بما أوحى ، من هدايات للناس . فقال - تعالى -

« قُلْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاقًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ (٤٩) أَوْ يَرْوِّجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنَاقًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) . »

وقوله - تعالى - : « قُلْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ... » بيان لكمال قدرته - سبحانه - ، ولنفاذ مشيئته . والملك - بضم الميم - الاستيلاء عليه والتمكن من التصرف فيه .

أى : الله - تعالى - وحدة ملك جميع ما فى السموات والأرض ، وليس لأحد معه شىء لا اشتراكا ولا إستقلا لا ، وهو - سبحانه - د يخلق ما يشاء ، أن يخلقه ، من غير أن يكون لأحد وصاية عليه ، أو إختيار لشىء معين .

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر هذه القدرة التامة ، والإرادة النافذة فقال : يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيبا . د فهذه الجملة الكريمة بدل مفصل من يحمل ، أو بدل بعض من كل . وأحوال الناس بالنسبة للذرية لا تخلو عن هذه الأقسام الأربعة فهو - سبحانه - إما أن يهب لمن يشاء من عباده إناثا لاذكور معين ، وإما أن يهب لهم ذكورا لإناث معين ، وإما أن يهب لبعضهم الإناث والذكور معا وهذا معنى قوله - تعالى - د أو يزوجهم ذكرا وإناثا ، إذ التزويج معناه الجمع بين البنين والبنات .

وإما أن يجعل بعضهم عقيبا ، أى : لاذرية له ، ذكر اكان أو أنثى . يقال رجل عقيم وأمرأة عقيم ، إذا كانا لاذرية لها

وهذه الأحوال الأربعة كلها مشاهدة فى حياة الناس ، فمنهم من معه الإناث فقط ، ومنهم من معه الذكور والإناث ، ومنهم من ليس معه منهما شىء . وهذا كله يدل على كمال قدرته - سبحانه - ، وعلى نفاذ إرادته وحكمته ، إذ أعطى من يشاء إعطاءه بفضله ، ومنع من يشاء منعه لحكمة يعليها ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان أن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده ، وأن أحوال البشر بالنسبة للذرية خاضعة لمشيئته وحده ، وهو - سبحانه - يقدرها وفق علمه وإرادته وحكمته ؛ ليس لأحد مدخل فى إختيار نوع معين من الذرية ، وليس عند أحد القدره على إنجاب شىء منها ، إذا أراد الله منعه من ذلك .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : فإن قلت : لم قدم الإناث أولاً على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ؟ ولم عرف الذكور بعد ما فكر الإناث ؟

قلت : قدم الاناث لبيان أنه -- سبحانه -- يفعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أم ، والأم واجب التقديم ...

وأخر - سبحانه - الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحق بالقديم بتمريفهم ، لأن التعريف تفويه وتشهير ، فكأنه قال : ويحب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ذكرانا وإنا ، كما قال : إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، ... (١)

وقوله - تعالى - : إنه عليم قدير ، تذييل قصد به تأكيد قدرته وحكمته .
أى : إنه - سبحانه - واسع العلم بأحوال عباده وبما يصلحهم ، قدير على كل شيء ، فهو يفعل ما يفعله عن قدرة وإختيار ، لا مكره له ولا معقب لحكمه
ثم بين - سبحانه - الطرق التي بها يقع التكليم منه - تعالى - للتخاترين من عباده فقال : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء .

فهذه الآية المكريمة قد دلت على أن تكليم الله - تعالى - للبشر وقع على ثلاثة أوجه :

الأول : عن طريق الوحي ، وهو الإعلام في خفاء وسرعة عن طريق الإلقاء في القلب بقظة أو مناما ، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية .

والوحى مصدر أوحى ، وقد غلب إستعماله فيما يلقى للمصطفين الأخبار من الكلمات الإلهية .

والثانى . عن طريق الإسماع من وراء حجاب ، أى حاجز ، بأن يسمع النبي كلاما دون أن يرى من يكلمه ، كما حدث لموسى - عليه السلام - عندما كلمه ربه - عز وجل - ، وهذا الطريق هو المقصود بقوله - تعالى - : : أو من وراء حجاب ، .

والثالث : عن طريق إرسال ملك ، وظفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله ^{تعالى} بتبليغه له ، وهو المقصود بقوله - تعالى - : : أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، .

وهذا الطريق الثالث قد وضعه الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث ابن هشام ، سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - أحيانا يأتينى مثل صاصلة الجرس - وهو أشده على - أى : أحيانا يأتينى مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض - فيفصم عنى وقد وعيت منه ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته - صلى الله عليه وسلم - ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا ،

والمعنى : وما صح وما إستقام لبشر أن يكلمه الله - تعالى - فى من حال الأحوال إلا موحيا إليه ، أو مسمعا لإياه ما يريد إستماعه له من وراء حجاب ، أو يرسل إليه ملكا ليبلغه ما يريد - سبحانه - منه .

وقوله - تعالى - : : إنه على حكيم ، تعاليل لما قبله . أى : إنه - سبحانه - متعال عن صفات النقص . حكيم فى كل أقواله وأفعاله

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم -

فقال : ، وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب
والإيمان ،

والكاف في قوله ، كذلك ، بمعنى مثل وامم الإشارة يعود إلى ما أوحاه
إلى الرسل السابقين .

والمراد بالروح : القرآن . وسماه - سبحانه - روحا ، لأن الأرواح تحيا
به ، كما تحيا الأبدان بالغذاء المادى .

أى : ومثل إيماننا إلى غيرك من الرسل ، أوحينا إليك - أيها الرسول
الكريم - هذا القرآن ، الذى هو بمنزلة الأرواح الأجساد ، وقد أوحيناه إليك
بأمرنا وإرادتنا ومشيتنا ، وأنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت تعرف أو
تدرك حقيقة هذا الكتاب حتى عرفناك إياه ، وما كنت تعرف أو تدرك
تفاصيل وشرائع وأحكام هذا الدين الذى أوحيناه إليك بعد النبوة

فالمقصود بالآية الكريمة نفى علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا
القرآن قبل النبوة ؛ ونفى أن يكون - أيضا - عالما بتفاصيل وأحكام هذا الدين
لانفى أصل الإيمان

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : : وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة
وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ، (١)

وقوله - سبحانه - : : نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك
هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ، (٢)

والضمير في قوله - تعالى - : : وإكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من
عبادنا يعود إلى القرآن الكريم ، الذى هب عنه بالروح

أى : وإكن جعلنا هذا القرآن العظيم نورا ساطعا ، نهدي به من نشاء
هدايته من عبادنا ،

(١) سورة النساء الآية ١١٣

(٢) سورة يوسف الآية ٣

« وإنك ، أيها الرسول الكريم وتهدي ، من أرسلناك اليهم » إلى صراط مستقيم ، أى طريق واضح قويم لا أعوجاج فيه ولا التواء .
وقوله : « صراط الله ، بدل مما قبله ، وإضافته إلى الله - تعالى - للتفخيم والتشريف .

أى : وإنك لترشد الناس إلى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ملكا وخلقاً وتصرفاً ..

« ألا إلى الله ، - تعالى - وحده » تصير الأمور ، أى : تنتهى إليه الأمور وتصل إليه وحده ، فيقضى فيها بقضائه العادل ، وبحكمه النهائي الذى لا معقب له وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « الشورى » ، فسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعا لعباده

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفوره

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - مساء الأحد

٦ من المحرم سنة ١٤٠٦ هـ

الموافق ٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٥ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الزخرف

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

(الجزء الخامس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الزخرف » ، من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها تسع وثمانون آية ، وكان نزولها بعد سورة « الشورى » .

٢ - وقد افتتحت سورة « الزخرف » ، بالشأن على القرآن الكريم . وبأسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ، وببيان جانب من مظاهر قدرته - تعالى - ، ومن أنواع نعمه .

قال - تعالى - : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشربنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . . . » .

٣ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن جهالات المشركين ، وعن دعاوهم السكاذبة ، وعن أقوالهم الفاسدة عندما يدعون إلى الدخول في الدين الحق .

قال - تعالى - « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، مستكتبين شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون . . . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذابين . »

٤ - وبعد أن سافت السورة الكريمة جانبا من دعوة إبراهيم - عليه السلام - لقومه ، واصلت حديثها عن موقف المشركين من دعوة الحق ، وعن

اعتراضهم على نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أخذت في تنفيذ هذه الاعتراضات ، وفي تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وبينت سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة .

قال - تعالى - : وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أحم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون .

ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين

٥ - ثم ساقّت السورة السكرية بعد ذلك جانباً من قصة موسى - عليه السلام - وكيف أن الله - تعالى - دمر فرعون وقومه ، بسبب بغيهم وإصرارهم على كفرهم .

قال - تعالى - : ونادى فرعون في قومه ، قال يا قوم اليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين .

٦ - ثم أتت السورة حديثها عن جانب من قصة موسى مع فرعون وقومه ، بالحديث عن موقف المشركين من عيسى - عليه السلام - الذي جاء قومه بالحق والحكمة ، فقال - تعالى - : ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنی إسرائيل .

٧ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى عباده المؤمنين ، بشرم فيه برضوانه وجنته . فقال - تعالى - : يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون .

الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون
يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ
الآعين وأنتم فيها خالدون .

٨ - وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار .
أتبع القرآن حديثه عن ثواب المتقين ، بالحديث عن عقاب الكافرين ، فقال
- تعالى - : « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون
وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال
إنكم ماكثون .

٩ - ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بتسليمة النبي - صلى الله عليه وسلم
الجواب الذي يخرس به ألسنة المشركين ، ويسليه عن كيدهم ولجاجهم ويسلحه
بالحق الذي لا يحوم حوله باطل .

قال - تعالى - : « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . سبحانه رب
السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى
يلاقوا يومهم الذي يوعدون .

إلى أن يقول - سبحانه : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى
يؤفكون . وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلام
فسوف يعلمون » .

١٠ - وبعد فهذا عرض لإجمالى لبعض المقاصد التى اشتملت عليها سورة
« الزخرف » ، ومنه نرى أن السورة السكرية تهتم اهتماما واضحا بالحديث عن
العقبات التى وضعها المشركون فى طريق الدعوة الإسلامية ، وكيف أن الله
- تعالى - قد أعطى نبيه - صلى الله عليه وسلم - السلاح الذى يهدم به هذه العقبات
كما اهتمت ببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - ونعمه خلقه ، وبيان جانب من
قصص بعض الأنبياء - كإبراهيم وموسى وعيسى - عليه السلام - لتسليته
- صلى الله عليه وسلم - عما لحقه من أذى المشركين ، كما اهتمت بالمقارنة بين

عاقبة الأخيار والأشرار ، وبإقامة البراهين الساطعة على وحدانية الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من المقاصد التي لا مجال لتفصيل الحديث عنها في تلك المقدمة ، وإنما ستمحدث عنها بشيء من التوضيح خلال تفسيرنا لآيات السورة الكريمة .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجي عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة - مدينة نصر
مساء الثلاثاء ٨ من صفر ١٤٠٦ هـ
١٢/١٠/١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « حم (١) والكتاب المبين (٢) إنا جعلناه قرآنا عريبا لعلكم تعقلون (٣) وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم (٤) أفنضرب عنكم الذكرا صفحا أن كنتم قوما مسرفين (٥) وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦) وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون (٧) فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين (٨) » .

سورة الزخرف ، من السور التي افتتحت بالحروف المقطعة ، وقد سبق أن قلنا في المراد بهذه الحروف ما خلاصته : هذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور ، يغلب على الظن أنه جرى بها للتنبيه إلى إعجاز القرآن ، لأنه مؤلف من كلام هو من جنس كلامهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ... (١) .

ود الواو ، في قوله : والكتاب المبين ، للقسم ، والمقسم به الكتاب ، وجواب القسم قوله - تعالى - بعد ذلك : إنا جعلناه قرآنا عربيا .. ،

أي : وحق هذا الكتاب الواضح المرشد إلى طريق الحق والسعادة ، لقد جعلناه بقدرتنا وحكمتنا هذا الكتاب قرآنا عربيا لعلكم تعقلون .

أي : جعلناه كذلك لكي تفهموه وتتعقلوا معانيه ، وتهتدوا إلى ما فيه من الأحكام السامية . والآداب العالمية ،

قال صاحب الكشف : أقسم - سبحانه ، بالكتاب المبين وهو القرآن ، وجعل قوله : إنا جعلناه قرآنا عربيا جوابا للقسم ، وهو من الإيمان الحسنة

(١) راجع تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف .

البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد ... و المبين ،
أى : البين الذى أنزل بلغتهم وأساليهم ... (١) .

فقوله - تعالى - : « لعلكم تعقلون » ، بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله
- تعالى - هذا القرآن بلسان عربى مبين . أى : جعلناه كذلك رجاء أن تعقلوا
وتفهموا أوامره ونواهيه ، وتوجيهاته وإرشاداته .

ثم بين - سبحانه - المنزلة السامية التى جعلها لهذا القرآن ، والصيانة التامة
التي أحاطة بها فقال : « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » .

والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، وسمى بذلك لأن جميع الكتب
السمائية منقولة عنه ، كما قال - تعالى - « بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ » .

وقيل : المراد بأم الكتاب : علمه الأزلى - عز وجل - .

أى : وإن هذا القرآن المبين ، لثابت وكائن فى اللوح المحفوظ ، وهو
« لدينا ، أى : عندنا » لتعالى ، أى : لرفيع الشأن ، عظيم القدر « حكيم ، أى :
محكم النظم ، فى أعلى طبقات البلاغة » ، فلا يضيره تكذيب المكذبين ، ولا
طمع الطاعنين .

فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على القيمة العظيمة التى جعلها - سبحانه -
لهذا القرآن ، فى علمه - تعالى - وتقديره ، كما أن وصف هذا الكتاب بقوله
« على حكيم » ، يؤكد هذه المنزلة السامية ويقررها .

وبعد هذا البيان المشرف للقرآن الكريم ، أتبع - سبحانه - ذلك بالكشف
عن مدى الإسراف القبيح الذى ارتكبه المشركون حين أعرضوا عنه ، فقال
- تعالى - : « أفنضرب عنكم أن ذكر صفحا ، أن كنتم قوما مسرفين » .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ،

والضرب هنا : بمعنى التلجى والابتعاد والإهمال ، تقول : ضربت عن فلان صفحا ، إذا عرضت عنه وتركتة . والصفح : مصدر صفحت عنه ، إذا عرضت عنه ، وذلك بأن تعطيه صفحة وجهك أى : جانبه . وهو منصوب لتضرب من غير لفظه ، كما فى قولهم : قعدت جلوسا . أو على الحال من الفاعل . على المصدرية أى : صالحين .

والمراد بالذكر هنا : القرآن الكريم .

والمعنى : أنعرض عنكم ونهملكم فلا نذكركم بالقرآن الكريم ، ولا نرشدكم إلى هداياته ، بسبب إصرافكم على أنفسكم ، ومحاربتكم للحق ، وإيثاركم الغى على الرشدا ؟ لا لن نفعل ذلك ، بل سننزل هذا القرآن على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

قال الشوكانى : قوله : دأن كنتم قوما مسرفين : قرأنافع وحزمه والكسأتى بكسر د إن ، على أنها شرطية ، والجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه . وقرأ الباقون بفتحها على التعليل ، أى : لأن كنتم قوما منهمكين فى الإصراف مصرين عليه ، (١) .

ثم سلى - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن مكرم فقال : د وكم أرسلنا من نبي فى الأولين ، و دكم ، هنا خبرية لإفادة كثرة الأنبياء المرسلين ، وهى مفعول مقدم لأرسلنا ، وقوله : من نبي ، تمييز لها .

أى : ما أكثر الرسل الذين أرسلناهم فى الأمم الأولين لهدايتهم ، فكان موقف أكثر هؤلاء الأمم من رسلهم ، يدل على إعراضهم عنهم ، وتكذيبهم لهم ، فاصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك ، كما صبر الذين من قبلك .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : د وما يأتينهم من نبي إلا كانوا به

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٤٧٥

يستهنئون ، أى : أن هؤلاء السابقين لم يأتهم نبي من الأنبياء لمدايتهم ، إلا استهنؤوا به ، وسخروا منه ، وأعرضوا عنه .

فإذا كانت نتيجة استهنؤهم برسلمهم كما قال - تعالى - :
« فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين » .

والضمير في قوله « منهم » يعود إلى القوم المسرفين ، المخاطبين بقوله - تعالى - : « أفنضرب عنكم الذكر صفحا ... » ، وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : فأهلكنا أشد منكم بطشا : - أيها المشركون - .

وقوله : « أشد منهم » مفعول به لأهلكنا . وأصله نعت لمحذوف ، أى : فأهلكنا قوما أشد منهم بطشا . والبطش : السطوة والقوة . يقال : فلان بطش بفلان إذا أخذه بقوة وعنف ، ومنه قوله - تعالى - : « وإذا بطشتم ببطشتهم جبارين » .

والمراد « بمثل الأولين » صفتهم المتمثلة في استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم .
أى : هكذا كان موقف السابقين من رسولهم ، لقد استهنؤوا برسلمهم فأهلكناهم ، وكانوا أشد قوة وبطشا من قومك المسرفين - أيها الرسول الكريم وقد اقتضت حكمتنا أن نسوق لقومك قصص هؤلاء السابقين وصفاتهم وما حل بهم من نكبات ، لكي يعتبروا بهم ، ولا ينهجوا نهجهم ، حتى لا يصيب قومك ما أصاب أولئك السابقين المكذبين .

ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » (١) .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك نماذج من تناقض هؤلاء المشركين مع أنفسهم ومن مواقفهم الجحودية من نعم الله تعالى عليهم ... فقال - تعالى - :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا أَلَمْ تُكْمِلُوا تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تَخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَائِكِ الْآرَاءِمَ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَنْتَسَوَّيَا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) » .

واللام في قوله - تعالى - : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » للقسمة . وجوابه قوله - تعالى - بعد ذلك : « لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ... »

والمعنى . وحق الله الذي لا إله إلا هو ، لئن سألت « أيها الرسول الكريم هؤلاء المشركين عن خلق هذا الكون ، ليقولن بدون تردد : خلقه الله - تعالى - المتصف في نفس الأمر بالعزة والعلم .

فالآية الكريمة تدل دلالة صريحة على أن هؤلاء المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا العالم ، وأن معبوداتهم بعض خلقه - تعالى - ولكنهم لجملهم وانطماس بصائرهم أشركوها معه في العبادة ، وقالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. » .

ويبدو أن هاتين الصفتين : « العزيز العليم » ليستا من أقوالهم . فهم كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا الكون ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها القرآن الكريم .

ولذا قال بعض العلماء : الذى يظهر أن هذا الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم ،
وبعضه من قول الله - تعالى - ، فالذى هو من قولهم «خلقهم» ، وما بعده من
قول الله - عز وجل - ، وأصل الكلام أنهم قالوا : خلقهم الله ، وبدل عليه قوله
- تعالى - فى آية أخرى : «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» .
ثم لما قالوا : خلقهم الله ، وصف الله - تعالى - ذاته بها نين الصفتين ،^(١)
ثم وصف - سبحانه - ذاته . بصفات أخرى فقال : الذى جعل لكم
الأرض مهذا . . .

المهد والمهاد : الفراش الممهد المذلل الذى يستقر عليه من جلس فوقه .
أى ، الخالق لهذا العالم هو الله العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض
كالفراش الممهد ، حيث بسطها لكم ، وجعلها صالحة لسيركم عليها ، ولإنبات
الزروع فيها .

« وجعل لكم فيها سبيلا » أى : وجعل لكم فيها طرقا متعددة ، لكي تسلكوها ،
فتصلوا من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى
« والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبيلا فجاجا » .

وقوله - تعالى - « لعلكم تهتدون » بيان للحكمة من جعل الأرض كذلك .
أى : جعلها ممهدة كثيرة الطرق ، لعلكم تهتدون إلى ما تريدون الوصول إليه
من البلاد ، ومن المنافع المتعددة .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفة ثانية فقال : « والذى نزل من السماء
ماء بقدر . . . »

أى : وهو - تعالى - الذى أنزل من السماء ماء بمقدار معين على قدر حاجتكم
ومصلحتكم ، فلا هو بالكثير الذى يفرقكم ، ولا هو بالقليل الذى لا يكتفى

حاجتكم ، بل نزل به بقدر كفايتكم ، كما قال سبحانه : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر ، فأسكنناه في الأرض وإننا على ذهاب به لقادرون » .
 و كقوله - تعالى - في آية ثانية : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم »
 وقوله - سبحانه - : « فأنشرنا به بلدة ميتا ، بيان للآثار المترتبة على هذا الإنزال الماء .

أى : نحن الذين بقدرتنا أنزلنا من السماء ماء على قدر حاجتكم ، وحسبنا تقتضيه مصلحتكم ، فأحيينا بهذا الماء بلدة مجدية ، لا نبات فيها ولا زرع .
 فالمراد بالنشور : الإحياء للأرض عن طريق إنبات الزرع بها ، بعد أن كانت مجدية .

وقوله : « كذلك نخرجون ، بيان لإمكانية إحياء الناس بعد موتهم .
 أى : مثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها ، نخرجون أتم من قبوركم أحياء يوم القيامة .

قال الألوسى : وفى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج ، تفهيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وفى ذلك من الرد على منكريه ما فيه ، (١)

وشبه هذه الآية قوله : « وهو الذى يرسل الرياح بشرابين يدي رحته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به السماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ، (٢)
 ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفة نالقة فقال : « والذى خلق الأزواج

(١) تفسير الألوسى ج ٢٥ ص ٦٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧

كلها ... ، أى : خلق أصناف وأنواع المخلوقات كلها . فالمراد بالأزواج هنا : الأصناف المختلفة من الذكر والأنثى . ومن غير ذلك من أنواع مخلوقاته التى تخصى .

قال - سبحانه : « سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ،

وقوله - تعالى - « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، أى : وسخر لكم بقدرته ورحمته من السفن التى تستعملونها فى البحر ، ومن الإبل التى تستعملونها فى البر ، ما تركبونه وتحملون عليه أثقالكم ، وتنتقلون بواسطته من مكان إلى آخر .

فما فى قوله « ما تركبون » ، موصولة ، والعائد محذوف . والجملة مفعول « جعل » . وقوله : « من الفلك والأنعام » ، بيان له مقدم عليه . أى : وجعل لكم ما تركبونه من الفلك والأنعام .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا التذليل والنسخير للفلك والأنعام فقال : « لتستروا على ظهوره ... » ، والضمير فى « ظهوره » ، يعود إلى « ما » ، فى قوله « ما تركبون » ، وجاء مفردا رعاية للفظ « ما » ، وجمع الظهور لأن المراد بالمركوب جنسه .

والاستواء : الاستعلاء على الشئ ، والتمكن منه . أى : سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه ، ولتستعلوا على ظهوره لاستعلاء المالك على مملوكه .

« ثم تذكروا ، بعد كل هذا التمكن والاستعلاء ، نعمة ربكم إذا إستويتم عليه » ، أى : على تلك السفن والأنعام التى تركبونها .

والضمير فى « عليه » ، يعود - أيضا - إلى « ما » ، فى قوله « ما تركبون » ،

باعتبار لفظه . . . وتقولوا ، على سبيل الشكر لله - تعالى - ، والاعتراف بفضله
« سبحان الذي سخر لنا هذا . »

أى : وتقولوا جل شأنه ، ونزهه عن الشريك والمثيل ، فهو الذى سخر
لنا هذا المركوب من الفلك والأنعام ، وجعله منقادا لنا ، طائعا لأمرنا
« وما كنا له مقرنين ، أى : والحال أننا ما كنا لهذا المركوب الصعب
بقادرين على التمكن منه ، لولا أن الله - تعالى - سخره لنا ، وجعله منقادا
لأمرنا

فقوله : « مقرنين ، أى : مطيعين وقادرين وضابطين ، من أقرن الشيء ،
إذا أطاقه وقدر عليه ، حتى لكانه صار له قرنا ، أى : مثله فى الشدة والقوة .
والمقصود : ما كنا بقادرين أو مطيعين لتذليل هذه السفن والأنعام ، لولا
أن الله - تعالى - قد جعلها منقادة لنا ، ومسخرة لخدمتنا
ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسان ، وأن البحر لو لم يذله - سبحانه -
لنا ، لما قدرت السفن على الجرى فيه

قال القرطبي : قوله : « وما كنا له مقرنين ، أى : مطيعين . . . أو ضابطين .
وفى أصله قولان : أحدهما : أنه مأخوذ من الإقران ، يقال : أقرن يقرن
إقرانا إذا أطاق . وأقرنت كذا أطاقته وحكمته ، كأنه جعله فى قرن - أى :
حبل - فأوثقه به ولده .

والثانى : أنه مأخوذ من المقارنه ، وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير
يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به ، وجملته قرينة (١) .

وقوله : « وإنا إلى ربنا المنقلبون ، من جملة ما يقولونه - أيضا - عند
إستوائهم على ظهور السفن والإبل .

أى : تقولون إذا استويتم عليه : سبحانه الذى سخر لنا هذا المركب الصعب ، وما كنا بقادرين على تذليله لولا أن الله - تعالى - وفقنا لذلك ، وإنا إلى ربنا وخالقنا راجعون يوم القيامة ، لئكى يحاسبنا على أعمالنا ، ويجازينا عليها بجزائه العادل

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، جملة من الأحاديث ، منها ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي . : عن عبد الله بن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال : « سبحانه الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . ثم يقول : اللهم إني أسألك في سفرى هذا البر والتقوى . ومن العمل ما ترضى . اللهم هون علينا السفر . واطولنا البعيد . اللهم أنت الصاحب في السفر . والخليفة في الأهل . اللهم اصحبنا في سفرنا . وأخلفنا في أهلنا ، (١)

وبذلك ترى الآيات السكرية قد ذكرت أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن رحمته بعباده ، لئكى يخلصوا له العيادة والطاعة .

ثم حكى - سبحانه - ما إفتراه المشركون على خالقهم ورازقهم من أكاذيب ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى -

« وجعلوا له من عباده جزءاً ، إن الإنسان لكفور مبين » (١٥)
 أم اتخذ مما يخنق بنات وأصفاكم بالبنين (١٦) وإذا بشر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (١٧) أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (١٨) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ، متكتب شهادتهم ويسألون (١٩) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا

يَحْزُونُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتُمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدًى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) .

والمراد بالجعل في قوله - تعالى - : وجعلوا له من عباده جزءا
الاعتقاد الباطل ، والحكم الفاسد . والمراد بالجزء الولد . والمقصود به خصوص البنات ، كما يدل عليه سياق الايات .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : وجعلوا له من عباده جزءا . . . متصل بقوله - تعالى - قبل ذلك ، «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض . . . » والمراد ببيان تناقضهم مع أنفسهم . . . حيث اعترفوا بأنه - تعالى - خالق السموات والأرض ، ثم وصفوه بصفات المخلوقين . . .

وعبر عن الولد بالجزء . لأنه بضعة - وفرع - من والده ، كما قيل : أولادنا أكبادنا . . . وقيل الجزء : لاسم للإناث ، يقال : أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى . . . (١)

أي : أن هؤلاء المشركين بلغ من تناقضهم في أقوالهم وأفعالهم ، أنهم إذا سألهم سائل عن خالق هذا الكون قالوا : الله . ومع ذلك فهم لجهاالتهم إعتقدوا لإعتقاد باطلا بأن الملائكة بناته ، مع أن الملائكة من مخلوقاته التي يشملها هذا الكون .

فالْمَقْصُود من الآية السَّكْرِيَّة نَجْمٌ هُوَ لَا المَشْرَكِينَ ، وَتَعْجِيبُ كُلِّ عَاقِلٍ من سَفَاهَتِهِمْ .

وَالظَّاهِر أَن المَرَاد بِالْإِنْسَانِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : : «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مُّبِينٍ» الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ مِنْ بَنِي آدَمَ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ لَا يَجْعُدُ نَعْمَ اللَّهِ ، وَلِنَمَّا يَشْكُرُهُ - تَعَالَى - عَلَيْهَا .

أَي : إِنَّ الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ وَالْفَاسِقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَشَدَّ الْجُحُودَ لِنَعْمِ رَبِّهِ ، مَظْهَرُ ذَلِكَ فِي أَقْوَالِهِ وَفِي أَعْمَلِهِ

ثُمَّ سَأَلَ - سَبْحَانَهُ - مَا يَدُلُّ عَلَى السَّخَرِيَّةِ مِنْهُمْ وَمِنْ أَحْوَالِهِمُ الشَّاذَّةَ فَقَالَ :
«أَمْ لَمْ يَتَّخِذُوا مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ، فَالْاِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ .
«أَصْفَاكُم ، أَي : آتَرَكُمُ وَاخْتَصَمَكُم . يُقَالُ : أَصْفَى فُلَانٌ فُلَانًا بِالشَّيْءِ إِذَا
إِخْتَصَمَهُ بِهِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لَمَّا يَخْتَصِمُ السُّلْطَانُ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ النَّفْسِيَّةِ :
الصَّوَافِي .

أَي : لَقَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ، فَخَبَرُونِي بِرَبِّكُمْ هَلْ يَعْقِلُ أَنْ يَتَّخِذَ
اللَّهُ - تَعَالَى - أَوْلَادَهُ مِنَ الْبَنَاتِ اللَّائِي هُنَّ أَقْلُ مَنزَلَةٍ مِنَ الْبَنِينَ ، وَيَتْرَكَ لَكُمْ
الذَّكَورَ ؟ إِنْ مِنْ شَأْنِ الَّذِي يَخْتَارُ جِنْسَ الْأَوْلَادِ أَنْ يَخْتَارَ أَعْلَامَ مَنزَلَةٍ قَبْلَ أَنْ
يَنْطِقَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ .

قَالَ صَاحِبُ الْإِنْكَشَافِ : قَوْلُهُ : : «أَمْ لَمْ يَتَّخِذْ مِمَّا يَخْلُقُ ...» أَي : هَلْ اتَّخَذَ
وَالْهَمْزَةُ الْإِنْكَارُ ، تَجْهِيلًا لَهُمْ ، وَتَعْجِيبًا مِنْ شَأْنِهِمْ ، حَيْثُ لَمْ يَرْضَوْا بِأَنْ يَجْعَلُوا
لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جَزَاءً ، حَتَّى جَعَلُوا ذَلِكَ الْجِزَاءَ شَرَّ الْجِزَمِينَ . وَهُوَ الْإِنَاثُ
دُونَ الذَّكَورِ ...

فَمَكَانُهُ قِيلَ : هَبُوا أَنْ إِضَافَةَ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ - تَعَالَى - جَائِزَةٌ فَرْضًا وَتَجْهِيلًا
أَمَّا نَسْتَجِبُونَ مِنَ الشَّعْطِ فِي الْقِسْمَةِ ، وَمِنْ ادْعَائِكُمْ أَنَّهُ آتَرَكُمُ عَلَى نَفْسِهِ بِخَيْرِ
الْجِزَمِينَ ... ؟ (١)

ثم أكد - سبحانه - جهلهم وغفلتهم عن المنطق السليم فقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ... »

أى : أنهم قالوا الملائكة بنات الله ، والحال أن الواحد منهم إذا بشره بمبشر بأن امرأته قد ولدت له أنثى ، صار وجهه مسوداً من شدة الحزن ، وظل مبتلياً بالهم والكرب .

فالمراد بقوله : « بما ضرب للرحمن مثلاً » : جنس البنات حيث قالوا : الملائكة بنات الله .

قال الجمل : قوله : « وإذا بشر أحدهم ... » إسكتناف مقرر لما قبله . وقيل حال د على معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر ، ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم . والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت الإعراض عنهم ، وتحكى لغيرهم ليعجب منها . و « ما » فى قوله « بما ضرب للرحمن مثلاً » موصولة ومعناها البنات . وضرب بمعنى جعل . والمفعول الأول الذى هو عائد الموصول محذوف . أى : ضربه . ومثلاً هو المفعول الثانى . والمثل بمعنى الشبه أى المشابهة .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيهم السابق تبكيتهما آخر فقال : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » .

والاستفهام للإنكار . وكلمة « من » ، عبارة عن جنس الإناث ، وهى فى محل نصب بمضمر معطوف على « جعلوا » ، و « ينشأ » : يربى وينشأ . يقال : نشأ فلان فى بنى فلان ، إذا شب وزرع فىهم و « الحلية » : لاسم لما يتحلى ويتزين به .

أى : أيجترئون ويعملون لله - تعالى - الإناث ، اللاتى من شأنهم أن ينشأن فى الزينة ، لأن هذه الحياة هى المناسبة لهن ولتكوينهن الجسدى ، واللاتى من شأن معظمهن أنهن لا يقدرن على الدفاع عن أنفسهن ، لضعفهن وقصورهن

في الجدال وفي بيان الحجة التي ترد الخصم . وتزيل المصيبة .
فالمقصود من الآية الكريمة تأنيب هؤلاء المشركين على جهلهم وسوء
أدبهم ، حيث أنهم نسبوا إلى الله - تعالى - الإناث اللاتي من شأنهن النشأة في
الحلية والدعة والنهومة ، فصرن بمقتضى هذه النشأة ، وبمقتضى تسكينهن
البدني والعقلي ، لا يقدرن على جدال أو قتال ،
الذين هم قوامون على النساء .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : : « الحكم الذكور وله الاتي . تلك إذ ذك
قصة عزيزي . » ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب افتراءهم الكذب
فقال : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم
ويجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء ، كما تقول جعلت زيدا أفضل
التاس . أى حكمت عليه بذلك .

أى : أن هؤلاء المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد
الرحمن ، وصفوة خلقه ، وأهل طاعته . زعموا أنهم إناثا ، فهل كانوا حاضرين
وقت أن خلقناهم حق حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل ؟

كلا لأنهم لم يكونوا حاضرين ، ولذا « ستكتب شهادتهم ، في صحائف
أعمالهم المليئة بالسيئات ، ويسألون ، عنها سؤال تأنيب وتوبيخ يوم القيامة .
فالمراد بالكتابة والسؤال : فعاقبتهم على افتراءهم الكذب ، وتجهيلهم
فيما قالوه . ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان معاذيرهم الكاذبة فقال : « وقالوا
لو شاء الرحمن ما عبدناهم

أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة :
لو شاء الرحمن عدم عبادتنا للملائكة أو للأصنام ما عبدناهم .

ثم يرد الله - تعالى - عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويهدم معاذيرهم فقال :
« ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون

أى : قالوا ما قالوه عن غير علم أو برهان ، لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه ، ولأنه - سبحانه - قد اقتضت حكمته ومشيئته ، أن يجعل للإنسان القدرة على اختيار طريق الحق أو طريق الباطل . وهم قد اختاروا طريق الباطل ، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم على ذلك مكره . فما قالوه ما هو إلا نوع من أنواع خرصهم وكذبهم وظنونهم الفاسدة .

وقد فصلنا القول في مسألة المشيئة عند تفسيرنا لقوله - تعالى - في سورة الأنعام : «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ...» (١)

وعند تفسيرنا لقوله - تعالى - في سورة النحل : «وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ...» (٢)

وقوله - تعالى - : «أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون، لضربا عن نفي أن يكون لهم فيما أدعوه علم عن طريق العقل ، إلى إبطال أن يكون لهم علم من جهة النقل . و «أم ، بمعنى بل والهمزة . والاستفهام الإنكار والتوبيخ . أى : بل أعطيناهم كتابا من قبل القرآن ، فيه ما يشهد بصحة أقوالهم ، فهم بهذا الكتاب مستمسكون ؟ كلا إنما لم نعظم شيئا من ذلك .

ثم بين - سبحانه - مستندهم الحقيقي فقال : «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، .

أى : أنهم ليس لهم في الحقيقة مستند لا من العقل ولا من النقل ، وإنما مستندهم الوحيد تقليد لا بائهم في جهالاتهم وسفاهاتهم وكفرهم ... فقد قالوا عندما دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الدين الحق : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أى على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وهى عبادة هذه الآلهة ، وإنا على آثارهم ، وطريقتهم ، مهتدون ، أى : سائرون بدون تفكير أو تدبر ، أو حجة

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية ص ٦٩ من تفسير سورة النحل ،

أو دليل . فهم أشبه ما يكونون بقطيع الأنعام الذي يسير خلف قائده ، دون أن يعرف إلى أى طريق يسير . . .

وقوله - سبحانه - : : وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها ، إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى ، ومن قول باطل .
و ، الكاف ، بمعنى مثل . واسم الإشارة ذلك يعود إلى حال الكافرين من قبلهم .

أى : لا نخزن - أيها الرسول الكريم - لما تراه من إعراض المشركين عن دعوتك . فإن شأنهم كشأن سابقينهم في الكفر والضلال ، فإننا ما أرسلنا من قبلك من رسول في قرية من القرى ، أو في قوم من الأقوام ، إلا قال المنعمون منهم ، والذين أبصرهم القرف لمن جاءهم بالحق : إنا وجدنا آباءنا على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وإنا على آثارهم ، وعلى نهجهم ، مقتدون . أى : مقتدون بهم في عبادتهم وأفعالهم .

وخص المترفين بالذكر ، لأنهم القادة الذين صرفهم التنعم وحب الجاه والاساطان ، عن النظر والتدبر والاستماع للحق ، وجماهم يستحبون العمى على الهدى .

وهنا يحكى القرآن رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيقول : وقال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . . .

أى : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لقومه الذين أصرروا على تقليد آباءهم في الكفر والضلال : أنتبعون آباءكم وتقتدون بهم في الكفر ، حتى ولو جنتكم بدين أهدى وأصوب مما كان عليه آباؤكم ؟ .

وقوله : - تعالى - : : قال أولو جنتكم . . . ، قراءة ابن عامر وحفص عن

عاصم . وقرأ الجمهور ، قل أو لو جئتكم . . . ، على أن الأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - تعالى - : « قالوا إنما بما أرسلتم به كافرون » أى : قال المترفون فى الرد على رسلهم : إنما بما أرسلتم به من الهدى والدعوة إلى الدين الحق كافرون ، وبقاؤون على الدين الذى كان عليه آبائنا .

وقوله - سبحانه - : « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » بيان للعاقبة السيئة التى حاقت بهم بسبب إصرارهم على كفرهم ونفاقهم لا بائتهم .

أى : قالوا الرسل هذا القول الذى يدل على إشارتهم الغى على الرشد ، فانتقمنا منهم . بأن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا .

« فانظر » - أيها العاقل - وتأمل كيف كان عاقبة المكذبين ، لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها من أجمع الآيات القرآنية التى حكمت الأقوال الباطلة التى تفوه بها المشركون ، وردت عليها ردا منطقيا حكيما يهدمها من قواعدها .

لقد ذكرت - أولا - أنهم جعلوا لله - تعالى - من عباده جزا . . . ثم ردت عليهم بأنهم قوم جاحدون لنعم الله ، وأنهم لو كانوا يفعلون لما حكموا هذا الحكم الذى يدل على جهلهم وغفلتهم ، لأنه لو كان الأمر كما ذكروا - على سبيل الفرض والتقدير - لما اختار - سبحانه - لذاته جنس البنات ، وأعطاهم البنين .

ثم ذكرت - ثانيا - حالهم عندما يبشرون بالآئى ، ونهكت بهم حين نسبوا إلى الله ، من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، والمقصود بذلك

جنس البنات ، ثم ذكرت - ثالثا - أنهم حكموا على الملائكة بأنهم إماء ، وردت عليهم بأن حكمهم هذا ساقط ، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الفاسد ، وأنهم سيجارون على أحكامهم التي لا دليل عليها ، بما يستحقون من عقاب .

ثم ذكرت - رابعا - معاذيرهم التي اعتذروا بها عندما حاصرتهم الحجة الدامغة ، فقد قالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، فرد - سبحانه - عليهم بقوله : ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون ، لأن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالآقوال الساقطة .

ثم ذكرت - خامسا - أنهم في إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي ، وإنما استندوا على شيء واحد هو التقليد لأنابهم في جهلهم وضلالهم ...

وهكذا ذكر القرآن أقوالهم وشبهاتهم .. ثم رد عليها بما يدحضها ..

وبعد هذا البيان المالحق لشبهات المشركين ولأقوالهم الباطلة ... أتبع - سبحانه - ذلك بذكر جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، وبذكر جانب من اعتراضاتهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى دعوته ، ورد عليها بما يخرس أسنتهم فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَمُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ سُخْرِيًا وَرَحْمَةً
 رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَحْمُومُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً
 لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا
 عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكِنُونَ (٣٤)
 وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ
 رَبِّكَ الْمَتَقِينِ (٣٥) .

أى : واذا ذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك حال جدك إبراهيم - عليه
 السلام - وقت أن قال لآييه آزر ، ولقومه الذين كانوا عاكفين على عبادة
 الأصنام ، مقادين في ذلك آباءهم ..

قال لهم : إنا نرى - مما تعبدونه من هذه الأوثان .

وذكر - سبحانه - هنا بحال إبراهيم ، لأنه كان أعظم آباءهم ، ومحط
 فخرهم ، والجمع على محبته منهم .

فكانه - تعالى - يقول لهم : هذا هو حال جدكم إبراهيم الذي تعززون به
 فلماذا لم تقلدوه في إنكاره لعبادة الأصنام ، وفي هجره لما كان عليه أبوه
 وقومه ، وفي إخلاصه العبادة لله - تعالى - وحده .

وقوله : « براء » مصدر وقع موقع الصفة وهي براءى ، على سبيل
 المبالغة في التجري من عبادتهم لغير الله - تعالى - يقال : تبرأت من فلان ،
 فأنا منه براء .

أى : كرهت قوله وفعله والقرب منه .

والاستغناء في قوله : « إلا الذي فطرني فإنه سيهتين » منقطع . أى : أنا

برىء من عبادة أصنامكم ، لكننى أعبد الذى خلقنى وفطرنى بقدرته ، فإنه هو الذى سيهدين إلى الصراط المستقيم .

ويصح أن يكون متصلاً ببناء على أنهم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى هذه العبادة أصنامهم .

أى : لأننى برىء من عبادة أصنامكم ، إلا أنى لا أعبد الله - تعالى - الذى فطرنى .

أى : خلقنى بقدرته على غير مثال سابق .

وقال هنا د سيهدين ، ، وقال فى آية أخرى : « الذى خلقنى فهو يهدين » ، للدلالة على ثقة إبراهيم - عليه السلام - بفضل ربه - تعالى - عليه ، وأنه يهديه فى الحال وفى المستقبل ، وأن هذه الهداية مصاحبة له فى كل وقت من أوقات حياته .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين قوله - تعالى - حكاية عن نبيه إبراهيم : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم لى برىء ما تشركون . لى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ... » (١) .

وقوله - سبحانه - : « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين ... » (٢) .

والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « وجعلهم كلمة باقية فى

(١) سورة الأنعام الآية ٧٨ ، ٧٩

(٢) سورة الشعراء الآيات ٧٥ - ٧٨ .

عقبه . . . ، يعود إلى كلمة التوحيد ، المشتعلة على البراءة من كل عبادة لغير الله - تعالى - ، والمعبر عنها قبل ذلك بقوله - تعالى - : «لأني براء بما أعبدون» ،

وضمير الفاعل المستقر في قوله - سبحانه - : «وجعلها . . . » يعود إلى الله - تعالى - .

أى : وجعل الله - تعالى - بفضلته وكرمه ، كلمة التوحيد ، باقية في عقب إبراهيم ، وفي ذريته من بعده ، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - في سورة الصافات : «سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه عبادنا المؤمنين . وشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين»

ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، على معنى أنه أوصى ذريته من بعده بعبادة الله - تعالى - وحده ، وأنه دعا ربه أن يجعل في ذريته من بعده وحده .

فيكون المعنى : وجعل إبراهيم هذه الكلمة وهي كلمة التوحيد باقية في ذريته حيث أوصاهم بعبادة الله وحده .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : «ووصى بها - أى بكلمة التوحيد - إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ...» (١)

ثم بين - سبحانه - الحكمة في هذا الجعل فقال : «لعلهم يرجعون» . أى :

جعلها كذلك وجاء أن يرجع إلى كلمة التوحيد من أشرك من ذرية إبراهيم ،
ببركة دعائهم بالإيمان ودعاء من آمن منهم .

فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله - تعالى - بقوله: رب اجعلني
مقيم الصلاة ومن ذريتي . . . ، وبقوله: ولا تجعلني ربي أعبد الأصنام .

بقوله - سبحانه - : : بل تمتعت هؤلاء وآباؤهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، إضراب عن كلام مخذوف ينساق إليه الكلام والمراد بهم هؤلاء ، أهل مكة المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - . وقوله : : تمتعت ، من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة ، وإشغافهم بذلك عن طاعة الله - تعالى - وشكره .

والمعنى: إقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية في بعض ذرية إبراهيم لعل من بقى من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها ، ولكنهم لم يرجعوا بل أصروا على كفرهم ، فلم أعاجلهم بالعقوبة ، بل منعت هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - ، بأن أمددتهم بالنعم المتعددة هم وآباؤهم ، وبقيت تلك النعم فيهم حتى جاءهم الحق ، وهو دعوتك إليهم إلى إخلاص العبادة لنا ، وجاءهم رسول مبين ، هو أنت - أيها الرسول الكريم - فإن رسالتك واضحة المعالم ، بيّنة المقاصد ، ليس فيها شيء من الغموض الذي يحملهم على الإعراض عنها

فالقصد من الآية الكريمة : بيان أن الكلمة الباقية عقب إبراهيم وهي كلمة التوحيد ، لم يتبها جميع أفراد ذريته ، بل إتبعها قوم وكفر بها آخرون وأن هؤلاء المكافرين - وعلى رأسهم كفار قريش - لم يعاجلهم الله - تعالى - بالعقوبة ، بل أعطاهم نعمة متعددة ، فلم يشكروا - تعالى - عليها ، واستمروا على ذلك ، حتى جاءهم الحق ، فلم يؤمنون به ، ولا بمن حمله اليهم وهو الرسول المبين - صلى الله عليه وسلم -

ومن الآيات التي تدل على أن ذرية إبراهيم كان منها المؤمن ، وكان منها الكافر ، قوله - تعالى - : ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون ، (١)

ثم بين - سبحانه - موقفهم من الحق الذي جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال : ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ،

أي : وحين جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالحق من عند ربهم ، لكي يخرجهم من ظلمات الكفر ، إلى نور الإيمان ... قالوا - على سبيل الجحود والعناد - : هذا الذي جئتنا به نوع من السحر ، وإنا به كافرون مكذبون .

والتعبير بقوله : د جاءهم ، يشعر بأن الحق قد وصل إليهم دون أن يقبوا أنفسهم في البحث عنه ، ومع ذلك فقد إستقبلوه بالجحود والإنكار .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان حسدهم وعنادهم فقال : وقالوا لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ،

والمراد بالقريتين مكة أو الطائف . وه قصودهما لإحداهما . كالوليد بن المغيرة من مكة ، وكمروة بن مسعود من الطائف

ويعنون بالعظيم : كثرة المال ، والرئاسة في قومه .

أي : وقال هؤلاء المشركون - على سبيل العناد والحسد - : هلا أنزل هذا القرآن ، الذي يقرؤه عليهما محمد - صلى الله عليه وسلم - ، على رجل عظيم في ماله وسلطانة ، ويكون من إحدى هاتين القريتين ، وهما مكة أو الطائف

فهم لجهلهم وإنطباع بصائرهم ، إستكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي - وإن كان في القمة من الشرف والسمو بين قومه - إلا أنه لم يكن أكثرهم مالا وسلطانا ، وهم يريدون أن تكون النبوة

في زعيم من زعمائهم ، أو رئيس من رؤسائهم .

وهذا منهم - كما يقول الألوسي - لجهلهم بأن رتبة الرسالة ، إنما تستدعي عظيم النفس ، بالتخلي عن الرذائل الدنية ، والتخلي بالمكالات والفضائل القدسية ، دون التزخرف بالزخارف للديوية ، (١)

وقد وبخهم الله - تعالى - على جهلهم بهذا بقوله : **وَأَمْ يَقْسَمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ...** ، فلاستفهام للإنكار والتهكم بهم ، والتعجب من تفكيرهم .

والمراد بالرحمة : ما يشمل النبوة ، وما أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من وحى ، وما منحه لإياه من خلق كريم ، وخير عظيم .

أى : كيف بلغ الجهل والغباء هؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة ؟ إنهم ليس بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك ، وليس عندهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاؤوا ، وليختاروا لها من أرادوا . وما دام الأمر كذلك فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم ؟

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته في خلقه فقال : **وَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...** ، أى : نحن قسمنا بينهم أرزاقهم في هذه الدنيا ، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم ، ونحن الذين - بحكمتنا - تولينا تدبير أسبابها ولم نكلها إليهم لعلنا بهجزم وقصورهم . ونحن الذين ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، في الدنيا ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا مخدوم ، وذاك خادم ، وهذا قوى ، وذاك ضعيف .

ثم ذكر - سبحانه - الحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق فقال : **وَلِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا** ،

أى : فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا في حوائجهم ، ويعاون بعضهم بعضا في

مصلحهم ، وبذلك تنتظم الحياة ، وينهض العمران . ويعم الخير بين الناس ، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله - تعالى - له من رزق واستعداد ...

ولو أننا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لنهارجوا وقتلوا ، وعم الخراب في الأرض ، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، لأن الحرص والطمع من طبيعته .

وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمر دنياهم فكيف أباحوا لأنفسهم التحكم في منصب النبوة ، وهو بلا شك أعلى شأنا ، وأبعد شأوا من أمور الدنيا .

وقوله « سخريا » بضم السين - من التسخير ، بمعنى تسخير بعضهم لبعض وخدمة بعضهم لبعض ، وعمل بعضهم لبعض ، قالغنى - مثلاً - يقدم المال لغيره . نظير ما يقدمه له ذلك الغير من عمل معين ...

وبذلك تنتظم أمور الحياة ، وتسير في طريقها الذي رسمه - سبحانه - لها .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » أى : ليستخدم بعضهم بعضا ؛ فيسخر الأغنياء بأموالهم ، الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض ، هذا بماله « وهذا بأعماله » فليتم قوام العالم ، لأن الأرزاق لو تسادت لتعطلت المعاش ، فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنى . فكيف يطعمون في الاعتراض في أمر النبوة . أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص ، ونكل العالى إلى غيرنا ... ٩ ، (١) .

هذا ، والمتأمل في هذه الآية السريمة يراها تقررسنة من سنن الله - تعالى -
التي لا تغيير لها ولا تبديل ، والتي تؤيدها المشاهدة في كل زمان ومكان ، فحتى
الدول التي تدعى المساواة في كل شيء . . . ترى سمة التفاوت في الأرزاق
وفي غيرها واضحة جليلة ، وصدق الله في قوله : « ورفعنا بعضهم فوق بعض
درجات » .

ومن الآيات التي نشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « والله فضل بعضكم على
بعض في الرزق . . . » (١) .

وقوله - سبحانه - : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة
أكبر درجات ، وأكبر تفضيلاً » (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية السريمة بالتهوين من شأن الدنيا فقال : « ورحمة
ربك خير مما يجمعون » .

أى : « ورحمة ربك - أيها الرسول الكريم - التي من أعلى مظاهرها
النبوة التي منحك إياها ، خير مما يجمعونه من حطام الدنيا ومتممها
وشهواتها .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهوين لحطام الدنيا فقال : « ولولا أن يكون
الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج
عليها يظهرون » .

وهلولا ، حرف امتناع لامتناع . والكلام على حذف مضاف . والمراد
بالأمة الواحدة : أمة الكفر . والمعارج جمع معرج وهي المصاعد التي يصعد
عليها إلى أعلى .

(١) سورة النحل الآية ٧١ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٢١ .

أى : ولولا كراهة أن يكون الناس جميعا أمة واحدة مجمعة على الكفر حين يشاهدون سعة الرزق ، ورفاة العيش ، ظاهرة بين الكافرين ...

لولا كراهية ذلك . لجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا ، لمن يكفر بالرحمن ، الشيء الكثير من حطام الدنيا ، بأن نجعل لبيوتهم سقفا من فضة ، وجعلنا لهم مصاعد فخمة عليها يرقون إلى أعلى مساكنهم .

وجعلنا - أيضا - لبيوتهم أبوابا جميلة ، وسررا ثمينة ، عليها يتكئون ، أى : على السرر يتكئون وهم جالسون فوقها .

« وزخرفا ، أى : وجعلنا لهم زخرفا ، ليستعملوه فى أسقف منازلهم ، وفى أبواب بيوتهم ، وفى غير ذلك من شئون حياتهم .

والزخرف : يطلق على الشيء الذى يقزين به . فيشمل الذهب والفضة ، وغيرهما مما يستعمله الناس فى تزيين بيوتهم :

وقوله : « وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للبتقين ، أى وما كل ما ذكرناه من البيوت الموصوفة بما ذكرناه من الصفات السابقة ، إلا شيء يتمتع به المتمتعون فى الحياة ، التى أسرها إلى زوال واضمحلال ...

أما الآخرة التى زينت باقية لانتهى ولا تنقطع ، فهى عند ربك خاصة بالمؤمنين الصادقين ، والذين آثروا النعيم الباقى على النعيم الفانى ، فقدموا فى فى دنياهم العمل الصالح ، الذى ينفعهم فى أخراهم .

« « «

وبعد هذا الحديث الجامع عن هوان شأن الدنيا عند الله - تعالى - ، أتبع - سبحانه - ذلك ببيان حال الذين يعرضون عن ذكر الله - تعالى - ، وأنهم يوم القيامة لن ينفعهم ندمهم أو تحسرم ، وسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم فقال - تعالى :

« وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقْيِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصْذُقُونَهُمُ مِنَ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتَ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقِيمُونَ (٤١) أَوْ زَيْنَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) » .

وقوله - سبحانه - : « يعش ، أى : يعرض . يقال : عشا فلان يعشو ، كدعا يدعو ، وعشى يعشى ، كرضى يرضى . إذا ضعف بصره ، ومنه قولهم : فاقة عشواء ، إذا كانت لا تبصر إلا شيئا قليلا ، والمراد هنا : عمى البصيرة ، وضعف إدراكها للخير . ومنه قولهم : ركب فلان العشواء ، إذا خبط أمره على غير هدى أو بصيرة .

والمعنى : ومن يتعام عن ذكر الرحمن ، ويعرض عن قرآنه ، ويتجاهل هدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، تقيض له شيطانا ، أى : ينهى ونسب له شيطانا رجبا يستولى عليه ، ويستحوذ على قلبه وعقله .

« فهو له قرين ، أى : فذلك الشيطان يكون ملازما ومصاحبا لهذا الإنسان الذى أعرض عن القرآن ، ملازمة القرين لقرينه ، والشئ لظله .

ومن الآيات التي تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « وقضنا لهم قرنا . فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس لئنهم كانوا خاسرين ، » (١)

ثم بين - سبحانه - الآثار التي تترتب على مقارنة الشيطان للإنسان فقال : « ولئنهم لبصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، .

والضمير في « ولئنهم ، يعود إلى الشيطان باعتبار جنسه ، وفي قوله - تعالى - « لبصدونهم ، يعود إلى « من » في قوله « ومن يش . . . » باعتبار معناها .

أى : « ومن يعرض عن طاعة الله ، نهى له شيطانا ، فيكون ملازما له ملازمة تامة ، وإن هؤلاء الشياطين وظيفتهم أنهم يصدون هؤلاء الفاسقين عن ذكر الله - تعالى - ، وعن سبيله الحق وصراطه المستقيم .

« ويحسبون ، أى : هؤلاء الكافرون ، أنهم مهتدون ، إلى السبيل الحق . فالضمير في قوله « ويحسبون ، وما بعده يعود إلى الكافرين .

ويصح أن يكون الضمير في قوله « ويحسبون ، يعود إلى الكفار ، وفي قوله « أنهم مهتدون ، يعود إلى الشياطين ، فيكون المعنى :

ويظن هؤلاء الكافرون أن الشياطين مهتدون إلى الحق ، ولذلك اتبعوهم وأطاعوهم .

ثم بين - سبحانه - ما يكون بين هذا الإنسان الكافر وبين قرينة من للشياطين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، .

أى : لقد استمر هذا المعرض عن ذكر الله في غيه . ومات على ذلك حتى إذا جاءنا يوم القيامة للحساب والجزاء ، قال ، لقرينه الذى صده عن طريق الحق ...

« ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ، أى : أتمنى أن تكون المسافة التى بينى وبينك من البعد والمفارقة ، كالمسافة التى بين المشرق والمغرب .

فالمراد بالمشرقين المشرق والمغرب . فعبّر - سبحانه - بالمشرقين على سبيل التغليب لأحدهما على الآخر .

« فبئس القرين ، أى : فبئس القرين أنت - أيها الشيطان - ، فالخصوص بالذم محذوف .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيقال لهذا العاصى عن ذكر الله ولقرينه على سبيل التأنيب والتوبيخ فقال : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم » :

والضمير فى قوله : « ينفعكم » يعود إلى التمنى المذكور فى قوله : « ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ... » ، و « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، بدل من « اليوم » .

أى : « ولن ينفعكم ندمكم وتمنيكم اليوم شيئاً ، بعد أن تبين لكم أفلاككم كتم ظالمين فى الدنيا ، ومصيرين على الكفر والضلال .

وقوله : « أنكم فى العذاب مشتركون » تعليل لما قبله . أى : « ولن ينفعكم اليوم تمنىكم وندمكم ، لأنكم فى هذا اليوم أنتم وقرناؤكم مشتركون فى العذاب ، كما كنتم فى الدنيا مشتركون فى سببه ، وهو الكفر والضلال .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : « أنكم فى العذاب مشتركون »

في عمل الرفع على الفاعلية . يعنى : ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب ، كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه ، لتعاونهم في تحمل أعبائه . لأن كل واحد منكم ، به من العذاب ما هو فوق طاقته ...

ولك أن تجعل الفعل للتعنى في قوله : يا ليت بيني وبينك ... ، على معنى : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فته من معنى مباعدة القرين . وقوله : أنكم في العذاب مشتركون ، تعليل ، أى : ولن ينفعكم تمنيتكم ، لأن حقكم أن تشاركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب ... وتقويه قراءة من قرأ : أنكم ، بالكسر ... (١) .

وبعد هذا التوبيخ الشديد للمعرض عن ذكر الله ولشيطانه ، يوجه الله - تعالى - خطابه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ليزيده تسليته وتثبيتاً فيقول : أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين ، .

والاستفهام للنفي أى : أفأنت - أيها الرسول الكريم - تستطيع أن تسمع الصم صوتك ، أو أن تهدي الذين انطمست بصائرهم إلى الطريق الحق . أو أن تخرج من كان في الضلال الواضح إلى الهدى والرشاد ؟

كلا إنك إن تستطيع ذلك ، لأن الهداية والإضلال ، من الله - تعالى - وحده . وأنت - أيها الرسول الكريم - عليك البلاغ ونحن علينا الحساب . فالقصد من الآية التكريهية تسلياً الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونفيه عن أن يضيق صدره بسبب إعراضهم المستمر عن دعوة الحق ، وبيان أن الهداية والإضلال بيد الله - تعالى - وحده .

وسامع - سبحانه - صبا وعميا ، مع أنهم يسمعون وينصرون ، لأنهم يهز الصم والعمى في عدم انتفاعهم بالهدى والرشاد الذي جاءهم به - صلى الله

عليه وسلم .

وقوله - تعالى - : ومن كان في ضلال مبين ، معطوف على العمى والصمم باعتبار تغير الصفات .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - لن تستطيع هداية من كان أصم وأعمى ، ومن كان مصرا على الضلال البين وما دام الأمر كذلك فسر في طريقك ، دون أن تذهب نفسك عليهم حسرات . .

وقوله - سبحانه - : وإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإننا عليهم مقتدرون ، زيادة في تسليته وثبتيته صلى الله عليه وسلم .

أى : أن أمرك - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء الظالمين لا يخلو عن حالين : إما أن تتوفينك قبل أن ترى نقمتنا منهم . . . وفي هذه الحالة فستولى نحن عذابهم والانتقام منهم ، حسب إرادتنا ومشيتنا ، وإما أن نبقى حياتك حتى ترى بعينيك العذاب الذى توعدناهم به ، فإننا عليهم وعلى غيرهم مقتدرون على تنفيذ ما نتوعد به دون أن يستطيع أحد الإفلات من قبضتنا وقدرة .

قال ابن كثير : أى : نحن قادون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله - تعالى - رسوله ، حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه في نواصيهم ، ولملك ما تضمنته نواصيهم ، (١) .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، (٢) .

والفاء في قوله - تعالى - : فاستمسك بالذى أوحى إليك . . . واقعة

(١) تفسير ابن كثير ٧ ص ٢١٥

(٢) سورة الرعد : الآية ٤٠

جوابا لشرط مقدر .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن أمرك مع هؤلاء المشركين لا يخلو عن حالين : فاستعسك - أيها الرسول الكريم - بما أوحينا إليك من هدايات وإرشادات ، لأنك على صراط مستقيم ، وطريق قويم لأعوج فيه ولا اضطراب .

، وإنه ، أى : هذا القرآن ، لذكر لك ولقومك ، أى : لشرف عظيم لك ، ولشرف عظيم لأهل مكة الذين بعثت فيهم بصفة خاصة ، ولغيرهم من آمن بك بصفة عامة . كما قال - تعالى - : « لقد أنزلنا إليك كتابا فيه ذكركم ... » ، أى : عزكم وشرركم .

وقرله : « وسوف تسألون ، تحذير من مخالفة ما اشتمل عليه هذا القرآن من أحكام وآداب وتشريعات .

أى : وسوف تسألون يوم القيامة عنه ، وعن القيام بحقه ، وعن مقدار تمسككم بأوامره ونواهيه ، وعن شكركم لله - تعالى - على منحكم لهذه النعمة . ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التثبيت لنتيجه - صلى الله عليه وسلم - تثبिता آخر فقال : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ، .

والمقصود من الآية الكريمة ببيان أن الرسل جميعا ، قد دعوا أقربائهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، كما قال - سبحانه - : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واحذروا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة » ، (١) .

وكما قال - تعالى - : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ، (٢) .

(١) سورة النحل الآية ٢٦

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥

قال صاحب الكشف ما ملخصه : ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لاستحالاته ، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم ، وأنهم ما جاءوا قط بعبادة الأوثان ، وإنما جاؤا بالأمر بعبادة الله - تعالى - وحده ...

وقيل : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - جمع الله له الأنبياء ، في ليلة الإسراء . في بيت المقدس ، فصلى بهم إماما ، وقيل له سلمهم : فلم يتشكك ولم يسأل .

وقيل معناه ، سل أمم من أرسلنا من قبلك ، وهم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل فإذا سألهم فكانت أسأل - رسلمهم - فالسلام على حذف مضاف ... (١) .

فالآية الكريمة تقرر على كل الوجوه بأبلغ أسلوب ، أن جميع الرسل قد جاءوا بمقيدة ، واحدة ، وبدين واحد ، هو عبادة الله - تعالى ، ونبت كل معبود سواه .

• • •

ثم تمضى السورة الكريمة في تسليتها لرسول - صلى الله عليه وسلم - في تثبيتها للمؤمنين ، فتذكر جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، وكيف أن فرعون سخر من دعوة موسى - عليه السلام ، وتباهى على قومه بذلك ، وكيف أنه استخف بهم فاطاعوه ، فكانت عاقبته وعاقبتهم أن أغرقهم الله جميعاً ، قال - تعالى - :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْرَاهَا ، وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجُمُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) إِنْ أَدْنَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ، قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ٤ (٥٦) .

وقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ومع بني إسرائيل ، على رأس القصص التي تكرر الحديث عنها في القرآن الكريم ، في سور متعددة . وذلك لما فيها من مساجلات ومحاورات بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولما فيها من عبر وعظات لقوم يعقلون .

لقد وردت هذه القصة في سور : البقرة ، والأعراف ، ويونس وهود ، والإسراء ، وطه ، والقصص ، والصفات ، وغافر . . ولكن بأساليب متنوعة يكمل بعضها بعضا . .

وهنا تبدأ هذه القصة بقوله - تعالى - : : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئته ، فقال إني رسول رب العالمين .

أي : والله لقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بآياتنا ، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، والتي على رأسها اليد والعصا . . . وأرسلناه بهذه الآيات إلى فرعون وملئته ، أي - أشرف قومه - فقال لهم ، ناصحا ومرشدا إني رسول رب العالمين إليكم ، لأمركم بعبادة الله - تعالى - وحده . وأنها كم عن عبادة غيره .

« فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ، أى : تخين جاء موسى - عليه السلام - إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا ، سارعوا إلى الضحك منها ، والسخرية بها ، بدون تأمل أو تدبر شأن المفرورين الجاهل .

فقوله - تعالى - « إذا هم منها يضحكون ، جواب « لما » . والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية والاستخفاف بالآيات التي جاء بها موسى - عليه السلام - ، مع أن هذه الآيات كانت تقتضى منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

وقوله - سبحانه - : « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها .. » بيان لقسوة قلوبهم ، وعدم تأثرها بالآيات والمعجزات .

أى : وما نريهم من آية دالة على صدق فيينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها ، في الدلالة على ذلك : مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة في ذاتها .

والمقصود بالجملة السكينة ، بيان أن هؤلاء القوم لم يأنهم موسى - عليه السلام - بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أنام بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها .

ويصح أن يكون المراد وصف الجميع بالكبر ، على معنى أن كل واحدة لكملها في ذاتها ، إذا نظر إليها الناظر ، ظنها أكبر من البواقى لاستقلالها بإفادة الغرض الذى جاءت من أجله .

ولملى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : والغرض به ذا الكلام ، أنهم موصوفات بالسكبر ، لا يكمن بتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل ، وتتنافس منازلها فيه التفاوت اليسير ، أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا ، وبعضهم ذلك ، فعلى ذلك بنى الناس

كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيهما ، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذلك ، ومنه بيت الحاسه :

من تلق منهم تقل لافيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى ^(١)
وقوله - تعالى - : وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون ، بيان المصير الذي
الذي آتوا إليه .

أى : وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي ، بالعذاب الدنيوى
الشديد ، لكي يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق ، ولكنهم لم يرجعوا .

فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوى ، الذى أشار إليه - سبحانه - بقوله :
« فארسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ،
فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ... » ^(٢)

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب ، فقال : « وقالوا
يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن لم تهتدون ،

وجمهور المفسرين على أن قولهم هذا ؛ كان على سبيل التعظيم لموسى
- عليه السلام - لأنهم كانوا يوقرون السحرة ، ويعتبرونهم العلماء .

قال ابن كثير : قوله « يا أيها الساحر » أى : العالم ... وكان علماء زمانهم
هم السحرة ، ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما ، فليس هذا منهم على
سبيل الانتقاص ، لأن الحال حال ضروره منهم إليه ، فهم تقتضى تعظيمهم
لموسى - عليه السلام ... » ^(٣)

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٥٥

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٣

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠٧

و ما ، في قوله : ، بما عهد عندك ، مصدرية : أى : بهمه عندك والمراد بهذا العهد : النبوة . وسميت عهدا ، لأن الله - تعالى - عاهد نبيه أن يكرمه بها ، أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد .

وقوله : ، إنما لمهتدون ، مرتب على كلام مخدوف .

أى : وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب ، قالوا لموسى - على سبيل التذلل والتعظيم من شأنه - يا أيها الساحر الذى غلبنا بسحره وعلوه ، أدع لنا ربك بحق عهده اليك بالنبوة ، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذى نزل بنا ، إنما لمهتدون ، أى : إنما لمؤمنون ثابتون على ذلك ، متبعون لك كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه .

فدعا موسى - عليه السلام - ربه أن يكشف عنهم العذاب ، فأجاب الله دعوته بأن كشفه عنهم ، فإذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أنهم تقضوا عهدهم ، واستمروا على كفرهم ، كما قال - تعالى - : فلما كشفنا عنهم العذاب ، أى : فحين كشفنا عنهم العذاب الذى حل بهم . إذا هم ينكثون ، أى : هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلا يؤمنون . يقال : نكث فلان عهده ونقضه إذا لم يف به .

ومن سوء أدهم أنهم قالوا : أدع لنا ربك ، فكأن الله - تعالى - رب موسى وحده ، وليس ربا لهم .

وشبه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم العذاب إلى أجل م بالهوه إذا هم ينكثون ، (١)

ثم حكى - سبحانه - جانباً من طغيان فرعون وجنوده ، واستخفافه

بِقَوْلِ قَوْمِهِ فَقَالَ : « وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ . . . أَيْ : أَنْ فِرْعَوْنُ جَمَعَ زَعَمَاءَ قَوْمِهِ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ .

أَوْ أَنَّهُ أَمَرَ مُنَادِيًا يَنَادِي فِي قَوْمِهِ جَمِيعًا ، لِيَعْلَمَهُمْ بِمَا يَرِيدُ إِعْلَامَهُمْ بِهِ ، وَأَسْتَد - سَبَّحَانَهُ - النَّدَاءُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ، لِأَنَّهُ هُوَ الْآمَرُ بِهِ .

والتعبير بقوله : « فِي قَوْمِهِ » ، يُشعر بأنَّ النَّدَاءَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا ، وَدَخَلَ فِي قُلُوبِهِمْ .

وقوله - تعالى - : « قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِّمَّنْ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . . . » حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ .

أَيْ : أَنْ فِرْعَوْنَ جَمَعَ عِظَمَاءَ قَوْمِهِ ، وَقَالَ لَهُمْ - بَعْدَ أَنْ خَشِيَ إِيمَانَهُمْ بِمُوسَى - : « يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِّمَّنْ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . . . » حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ .

وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَنْهَارَ الَّتِي تَرَوْنَهَا مُتَفَرِّعَةً عَنِ النَّيْلِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قَدَمِي ، أَوْ مِنْ تَحْتِ قَصْرِى .

« أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، ذَلِكَ ، وَتَسْتَدْلُونَ بِهِ عَلَى قُوَّةِ أَمْرِى ، وَسَعَةِ مَلِكِي ، وَعَظَمِ شَأْنِي فَفَقُولُوا « تُبْصِرُونَ » ، حَذُوفٌ . أَيْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ عَظَمَتِي .

و « أَمْ » فِي قَوْلِهِ : « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَدُ يَبِينُ » هِيَ الْمُنْقَطَعَةُ الْمَقْدَرَةُ بِمَعْنَى بَلْ أَلَيْسَ هِيَ لِلْأَضْرَابِ . وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا تَعُودُ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

أَيْ : بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ فَقِيرٌ وَلَيْسَ بِصَاحِبِ مَلِكٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ مَالٍ . . . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ « لَا يَكَدُ يَبِينُ » ، أَيْ : لَا يَكَدُ يَظْهَرُ كَلَامُهُ لِمَقْدَةٍ فِي لِسَانِهِ .

ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين ،

والأسورة : جمع سوار . وهو كناية عن تمليكك ، وكانوا إذا ملكوا رجلا عليهم ، جعلوا في يديه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة على أنه ملكهم .

أي : فله لو كان موسى ملكا أو رسولا ، أن يحل نفسه بأساور من ذهب ، أو جاء إلينا معه الملائكة محيطين به ، ومتقارنين معه ، لكي يعينوه ويشهدوا له بالنبوة .

ولا شك أن هذه الأقوال التي تفوه بها فرعون ، تدل على شدة طفانيته ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه وسفاهتهم وضعفهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب وإختلاق ، وإنما جمعه على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يهر أبصار ذوى الألباب .

وقوله : . ولا يكاد يبين ، إفتراء - أيضا - ، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهه تلك الحجرة ، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه ، فاستجاب الله - تعالى - له . . . وفرعون إنما أراد بهذا الكلام ، أن يروج على رعيته ، لأنهم كانوا جملة أغبياء . . . ، (١)

وقوله - تعالى - : « فاستخف قومه فأطاعوه ، لأنهم كانوا قوما فاسقين ، بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع ، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج عن طاعة الله - تعالى - .

أي : وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى - عليه

السلام ... طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم ،
خأجا بوه إلى ما طلبه منهم ، لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعتنا ، مؤثرين
النفي على الرشد ، والضلالة على الهداية ...

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : « فلما آسفونا انتقمنا منهم
فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين . »

وقوله : « آسفونا » أى : أغضبونا أشد الغضب ، من أسف فلان أسفاً ،
إذا اشتد غضبه و « سلفاً » أى : قدوة لمن بعدهم من الكفار فى استحقاق مثل
عقوبتهم . وهو مصدر وصف به على سبيل المبالغة ، ولذا يطلق على القليل
والكثير . يقال سلفه الشيء سلفاً ، إذا تقدم ومضى . وفلان سلف له عمل
صالح ، أى : تقدم له عمل صالح . ومنه : الأسلاف ، أى : المتقدمون
على غيرهم .

أى : فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب ، بسبب إصرارهم على الكفر
والفسوق والعصيان ، انتقمنا منهم انتقاماً شديداً ، حيث أغرقناهم
أجمعين فى اليم .

« فجعلناهم سلفاً » أى قدوة لمن بعدهم فى الكفر فى استحقاق مثل عقوبتهم
كما جعلناهم « مثلاً » أى : عبرة وموعظة « للآخرين » الذين يعملون
مثل أعمالهم ...

وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة ، جانباً من قصة موسى - عليه السلام -
مع فرعون وملئه .

ويتجلى فى هذا الجانب من القصة طغيان فرعون ، واستخفافه بعقول
قومه ، ومجاهرته بالكذب والفجور . فكانت عاقبتهم جميعاً الدمار والبقوار .

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن جانب من قصة موسى ، إلى
الحديث عن جانب من قصة عيسى - عليهما السلام - فقال تعالى :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا
 آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)
 إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ
 لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لِعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا
 تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ
 إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ
 بِالْحِكْمَةِ ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا (٦٣) إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
 عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً
 وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ (٦٦) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ
 مَثَلًا » ، روايات منها : أنه لما نزل قوله - تعالى - : « واسأل من أرسلنا من
 قبلك من رسلنا » ، تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد
 - صلى الله عليه وسلم - إلا أن نتخذه إلهًا ، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم
 فأَنزَلَ الله - تعالى - : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » ،

وقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن هذه الآية ، نزلت في مجادلة
 ابن الزبعرى - قبل أن يسلم - مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فإنه لما نزل قوله
 - تعالى - : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »

قال ابن الزبعرى أخصمتك - يا محمد - ورب السكعبة . أليست النصارى
 يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيرا ، وبنو مليح يعبدون الملائكة ؟ فإن
 كان هؤلاء في النار ، فقد رضيتم أن تكون نحن وآلهتنا في النار ؟

فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ما أجملك بلغة قومك ؟ أما فهمت أن « ما ، لما لا يعقل ، ؟ » . وفي رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال له : « إنهم يعبدون الشيطان ، ، وأنزل الله - تعالى - : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون » (١)

بـكـلـة : « يصدون » ، قرأها الجمهور بكسر الصاد . وقرأها ابن عامر والسكسائي بضم الصاد . وهما بمعنى واحد . ومعناها : يضجون ويصيحون فرحاً : يقال : صد يصد - بكسر الصاد وضمها - بمعنى ضج ، كعكف - بضم الكاف وكسرهما - .

ويرى بعضهم أن « يصدون » - بكسر الصاد - بمعنى : يضجون ويصيحون ويضحكون وأن « يصدون » - بضم الصاد بمعنى يعرضون - من الصد بمعنى الإعراض عن الحق . .

والمعنى : وحين ضرب ابن الزبير ، عيسى ابن مريم مثلاً ، وحاجلك بعبادة النصارى له ، فاجأك قومك - كفار قريش - بسبب هذه الحاجة ، بالصياح والضجيج والضجك ، فرحاً منهم بما قاله ابن الزبير ، وظناً منهم أنه قد انتصر عليك في الخصومة والمجادلة .

فن في قوله دمنه ، الظاهر أنها للسببية ، كما في قوله - تعالى - : « وما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً »

والمراد بالمثل هنا : الحجة والبرهان .

قال الألوسي : والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة ، قبل لها مثل . أو المثل بمعنى المثال . أي : جعله مقياساً وشاهداً على لإبطال قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى - عليه السلام - نفسه مثلاً من باب : الحج عرفة » (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٠ . والشوكاني ج ٤ ص ٥٦١ .
(٢) تفسير الألوسي ج ٢٥ ص ٩٢ .

ثم بين - سبحانه - أقوالهم التي بذروا عليها باطلهم فقال : **« وقالوا آلهتنا خير أم هو ... ؟ والضمير هو ، يعود إلى عيسى - عليه السلام - . »**

ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى - عليه السلام - على آلهتهم ، مجازاة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فمكأنهم يقولون : لقد أخبرتنا بأن عيسى ابن مريم رسول من رسل الله - تعالى - وأنه خير من آلهتنا .. فإن كان في النار يوم القيامة لأن الله - تعالى - يقول : **« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »** ، فقد رضيتم أن نكون نحن وآلهتنا في النار ..

وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله : **« ماضربوه لك إلا جدلا ، . »**

أي : لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما قالوه ، فإنهم ماضربوا لك هذا المثل بعيسى إلا من أجل مجادلتك بالباطل ، وليس من أجل الوصول إلى الحق .

وقوله : **« بل هم قوم خصمون ، »** مؤكدا لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل ، لا لطلب الحق ، ولإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم في خصومتهم .

أي : ذرم - أيها الرسول الكريم - في باطلهم بعمهون ، فإنهم قوم مجبولون على الخصومة ، وعلى اللجاج في الباطل .

فقوله : **« خصمون ، جمع خصم - بفتح فمكسر - ، وهو الإنسان المبالغ في الجدل والخصومة ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق . »**

وجاء التعبير في قوله : **« ماضربوه لك إلا جدلا ، بصيغة الجمع ، مع أن ضارب المثل واحد ، وهو ابن الزبيرى ، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ، من الأساليب المعروفة في اللغة العربية ، ومنه قول الشاعر :**

فسيب بن عيسى وقد ضربوا به نيبا يبدى ورقاء عن رأس خالد

فإنه قد نسب الضرب إلى جميع بنى عيس ، مع تصريحه بأن الضارب واحد ، وهو ورقاء ... ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى في قوله ، فكانهم جميعا قد قالوه ..

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى - عليه السلام - فقال : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ، » .

أى : ليس هو - أى : عيسى - عليه السلام - إلا عبد من عبادنا الذين أنعمنا عليهم بنعمة النبوة ، وجعلناه مثلاً ، أى : أسراً عجيباً ، جديراً بأن يسير ذكره كالأمثال ، لبنى إسرائيل ، الذين أرسلناه إليهم ، حيث خلقناه من غير أب ، وأعطيناه المعجزات الباهرات التى منها : إبراء الآفة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ... وهذا كله دليل على وحدانيتنا ، وكآل قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .

فالأية الكريمة ترفع من شأن عيسى - عليه السلام - ، وتحدد منزلته ، وتنفى عنه غلو المخالين فى شأنه ، وإنقاص المنقصرين من قدره .

ثم أكد - سبحانه - كآل قدرته فقال : « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، » .

ومن قوله - تعالى - « منكم » ، يصح أن تكون للبديهة ، فيكون المعنى : ولو نشاء لإهلاككم أيها الكافرون لفعلنا وجعلنا بدلاً منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم ، ولكننا لم نشاء ذلك لحكم نحن فعلها .

ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى : ولو نشاء لجعلنا منكم بارجال قريش ملائكة ، بطريق التوليد منكم ، من غير واسطة نساء ، فهذا أمر سهل علينا ، مع أنه أعجب من حال عيسى الذى استغفر بونه ، لأنه جاء من غير أب ، مع أن الأم من طبيعتها الولادة .

فالمقصود بالأية الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء ،

وأن ما تعجبوا منه ، الله - تعالى - قادر على أن يأتي بما هو أعجب منه .
قال صاحب الكشف : قوله « ولو نشاء » ، لقدرة تعالى على خلق عجائب
الأمور ، وبذائع الفطر ، « لجعلنا منكم ، أى : لولمنا منكم يا رجال » ملائكة
يخلفونكم فى الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير خل ،
لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام ... وذات الله
- تعالى - متعالية عن ذلك ، (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض ما يتعلق بعيسى عليه السلام فقال : « وإنه
لعلم للساعة ... » .

فالضمير فى « إنه » ، يعود إلى عيسى لأن السياق فى شأنه ، وقيل يعود
إلى القرآن أو إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وضعف ذلك لأن الكلام
فى شأن عيسى .

والمراد بالعلم : العلامة ، واللام فى قوله « للساعة » ، بمعنى على . والكلام
على حذف مضاف .

والمعنى . « وإن عيسى - عليه السلام - عند نزوله من السماء فيه آخر الزمان
حيا ، ليكون علامة على قرب قيام الساعة ، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك
أن تقع ... » .

قال الآلوسى : « وإنه ، أى : عيسى - عليه السلام - » ، لعلم للساعة ، أى :
أنه ينزوله شرط من أشراتها .

وقد نطقت الأخبار بنزوله - عليه السلام - فى آخر الزمان - ، فقد أخرج
البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه ، عن أبي هريرة قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ينزل ابن مريم ، حكما عدلا ، فليكسرن
الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليهضمن الجزية ، وليذهبن الشحناء ، والتباغض

والتحامد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ، (١) .

وقال ابن كثير ماملخصه : وقوله : « إنه لعلم الساعة » الصحيح أن الضمير يعود على عيسى عليه السلام ، فإن السياق في ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال - تعالى - : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته . . . » أي : قبل موت عيسى .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أنه أخبر بنزول عيسى قبل يوم القيامة ، وإماما عادلا ، وحكما مقسطا ، (٢) .

« وقوله : « فلا تمترن بها » ، أي : فلا تشكن في وقوعها في الوقت الذي يشاؤه الله - تعالى - ، فقوله « تمترن » من المربة بمعنى الشك والريب .

وقوله : « واتبعون هذا صراط مستقيم » ، أي : واتبعوا - أيها الناس - ما جئتمكم به من عبد ربي ، فإن هذا الذي جئتمكم به ، هو الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

« ولا يصدنكم الشيطان » ، أي : ولا يمتنعنكم الشيطان بسبب وسوسته لكم ، عن طاعتي واتباعي ، « إنه لكم عمو مبين » ، أي : إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة ، وكيدته لكم واضح ، كما قال - تعالى - : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » . إنما يدعو حزبه ليكنونوا من أصحاب السمير .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى - عليه السلام - لقرمه ، عندما بعثه الله إليهم فقال : « ولما جاء عيسى بالبينات ، قال قد جئتمكم بالحكمة » .

والبينات : جمع بينة . وهي صفة لموصوف محذوف ، والمراد بها : المعجزات التي أيد الله - تعالى - بها عيسى - عليه السلام - .

والمراد بالحكمة : النشريات والتكاليف والمواظب التي أرشدكم إليها ، عن طريق الكتاب الذي أنزله الله تعالى إليه ، وهو الإنجيل .

(١) تفسير الألوسي ج ٢٥ ص ٩٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٣

أى : وحين جاء عيسى - عليه السلام - إلى قومه ، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد - : يا قوم لقد جئتمكم بالمعجزات البينات الواضحة التي تشهد بصديق وجنتكم بالإنجيل المشتمل على مائة قضيه الحكمة الإلهية من آداب وأشرعيات ومواعظ.

وقوله : : ولا بين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، متعلق بمحذوف والتقدير :

قد جئتمكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، وجنتكم .. أيضا - لا بين لكم ولا صريح لكم بعض الأمور التي تختلفون فيها .

وقال - سبحانه - : : ولا بين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، ولم يقل كل الذى تختلفون فيه ، الإشعار بالرحمة بهم ، وبالسفر عليهم ، حيث بين البعض وترك البعض الآخر ، لأنه لاضرورة تدعو إلى بيانه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : هلا بين لهم كل الذى يختلفون فيه ؟ قلت : كانوا يختلفون في الديانات ، وما يتعاق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك ، ما لم يتعبدوا بمعرفة السؤال عنه ، وإنما بحث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعينهم من أمر دينهم .. ، (١)

وقوله - تعالى - : : فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ،

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، فاتقوا الله - تعالى - بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وبأن تطيعوني في كل ما أمركم به أو أنهاكم عنه . وإن الله - تعالى - هو ربي وربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمركم به أو أنهاكم عنه ، هو الطريق القويم ، الذى يوصلكم إلى السعادة

الدينورية والأخرية .

ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى - عليه السلام - فقال : « فاختلف الأحزاب من بينهم ... »

والأحزاب : جمع حزب . والمراد بهم الفرق التي انحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى .

وضمير الجمع في قوله « من بينهم » يعود إلى من بعث إليهم عيسى - عليه السلام - من اليهود والنصارى .

وقيل : يعود إلى النصارى خاصة ، لأنهم هم الذين اختلفوا في شأنه ، فمنهم من قال : هو الله . ومنهم من قال : هو ابن الله . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة .

قال الألوسي : قوله : « فاختلف الأحزاب » ، أى : الفرق المتحيزة « من بينهم » ، أى : من بين من بعث إليهم ، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته - عليه السلام -

وقيل : المراد النصارى ، وهم أمة إجابته ، وقد اختلفوا فرقا : ملكانية ، ونسطورية ، ويعقوبية ... (١)

وقوله - تعالى - : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، بيان للعقاب الشديد الذى أعده الله - تعالى - لهم ، بسبب اختلافهم وبغيهم ، وندبتهم إلى عيسى ما هو برى . منه .

أى : فهلاك وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبافتراءهم على عيسى - عليه السلام - ، وما أشد حسرتهم في هذا اليوم العصيب :

والاستفهام في قوله : هل ينظرون ، إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون للنفي .

وينظرون بمعنى : ينتظرون . والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق .

أى : ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة ، وهذا القيام سيأتيهم فجأة ، وبدون ، شعور منهم بها ، وحينئذ يندمون وطن ينفهم الندم ، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذى جاءهم به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - قبل فوات الأيمان .

فآية الكريمة دعوة هؤلاء المشركين ، إلى الاستجابة للرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا دعاهم لما يصلحهم ، من قبل أن يأتى لا يبيع فيه ولا خلل .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « فويل للذين كفروا من الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » ، فويل للذين كفروا من الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ،

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على جدالهم بالباطل وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم . وبينت الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - وتوعدت المختلفين فى أمره لاختلاف ما يتنافى مع ما جاءهم به ، بالآذاب الشديد .

• • • • •

وبعد - إذا الحديث عن جانب من قصة موسى ، وعن جانب من قصة عيسى - عليهما السلام - ، وعن موقف أقوامهما منهما . . . بعد كل ذلك رسمت السورة الكريمة صورة واضحة لحسن عاقبة المؤمنين ، ولسوء عاقبة المكذبين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة . فقال - تعالى - :

« الْاٰخِلَآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلَّا الْمُتَّقِيْنَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا اَنْتُمْ تَحْزَنُوْنَ (٦٨) الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا بِآيٰتِنَا وَكَانُوْا مُسْلِمِيْنَ (٦٩) ادْخُلُوْا الْجَنَّةَ اَنْتُمْ وَاَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُوْنَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ ، وَاُكْوَابٍ فِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الْاَنْفُسُ وَتَلَذُّ

الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ إِلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُثُوبٌ (٧٧) لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أُبْرِمُوا أَمْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) .

وقوله - تعالى - : . : الأخلاء ، جمع خليل بمعنى صديق . وسمى الأصدقاء أخلاء ، لأن المودة التي بينهم تحللت قلوبهم ولم تختلطت بنفوسهم .

أى : الأصدقاء في الدنيا ، يصير بعضهم لبعض أعداء ، لأنهم كانوا يجتمعون على الشرور والآثام في الدنيا ، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان . فلما جاء يوم القيامة ، وانكشف الحقائق ... انقلبت صداقتهم إلى عداوة .

د إلا المتقين ، فإن صداقتهم في الدنيا تنفعهم في الآخرة ، لأنهم أقاموها على الإيمان والعمل الصالح والطاعة لله رب العالمين .

فآية الكريمة لإذكار للكافرين الذين كانت صداقاتهم في الدنيا تقوم على محاربة الحق ، ومناصرة الباطل ... ويشارة عظيمة للمتقين الذين بنو صداقتهم في الدنيا على طاعة الله - تعالى - وفصرة دينه . والعمل بشريعته ،

ثم بشر الله - تعالى - عباده بحملة من البشارات الكريمة ، فقال - تعالى -

« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . »

والخوف معناه : توقع ما يخشاه ويقفم له الإنسان في المستقبل . والحزن معناه : غم يلحق الإنسان من أجل شيء مضر :

وقوله : « تحبرون ، أى : تفرحون وتسرون سرورا عظيما يظهر حباراه - بفتح الحاء وكسرها - . أى : أثره الحسن على وجوهكم وأقنعتكم . فهو من الخير - بفتح الحاء والباء - بمعنى الأثر . ويضح أن يكون من الخير - بسكون الباء - بمعنى الزينة وحسن الهيئة .

وبهذا نرى الآيات الكريمة قد نفت عنهم الخوف والحزن ، وفتحت لهم أبواب الجنة ، وأعلمتهم بأنهم سيكونون هم وأزواجهم فى سرور دائم .

أى : يقول الله - تعالى - لعباده المؤمنين يوم القيامة : يا عباد الذين شرفتمكم بالإضافة إلى ذاتي ، لا خوف عليكم اليوم من أمر المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على أمر مضى .

وقوله : « الذين آمنوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا - صلى الله عليه وسلم - . وكانوا فى الدنيا مخلصين وجوههم لنا ، وجاءلبن أنفسهم سالمة لاطاعتنا ... »

« ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ، أى : ونساؤكم المؤمنات ، تحبرون ، أى : تسرون وتتلذذون بتلك النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليكم .

فالمراد بأزواجهم هنا : نساؤهم ، لأن فى هذه الصلابة تلذذا أكثر ، ونعما أكبر .

والإضافة في قوله «أزواجكم» للاختصاص التام ، فتخرج الأزواج غير المؤمنات .

ومنهم من يرى أن المراد بقوله ، وأزواجكم ، : نظراؤكم وأشباهكم في الطاعة لله - تعالى - .

أى : ادخلوا الجنة أنتم وأشباهكم في الإيمان والطاعة . ودخولا تنالون معه الفرح الدائم ، والسرور الذى لا انقطاع له .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون» .

ثم بين - سبحانه - مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد فقال : «يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب» .

والصحاف : جمع صفحة . وهى الآنية الواسعة الكبيرة التى توضع فيها الأطعمة .

والأكواب : جمع كوب وهو ما يوضع فيه الشراب .

وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحيرون . فإذا مادخلوها واستقروا فيها ، يطاف عليهم بأطعمة وأشربة فى أوان من ذهب .

ولم تذكر الأطعمة والأشربة للعلم بها ، إذ لا معنى للطواف بالصحاف والأكواب وهى فارغة ..

«وفىها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» ، أى : وفى الجنة التى دخلوها كل ما تشتهيه الأنفس من أنواع المشتهيات ، وكل ما تلتذذ به الأعين وتسر برؤيته .

«وأنتم» ، أيها المؤمنون «فىها خالدون» ، خلودا أبديا لا نهاية له .

ثم ختم - سبحانه - هذا التكريم لعماده بقوله : « وتلك الجنة التي أوردتموها
بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ، » .

واسم الإشارة ، تلك ، مبتدأ وخبره ، الجنة ، وما بعدها صفة للجنة . . . ،
وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف .

وقال - سبحانه - « وتلك ، بالإفراد ، للاشعار بأن الخطاب لكل واحد
من أهل الجنة ، على سبيل العناية به ، والإعلاء من شأنه .

أى : ويقال لهم يوم القيامة على سبيل التشريف : وهذه الجنة التي
أوردتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا ، ولكم فيها فاكهة كثيرة ، وثمار
شبيهة لذيدة ، منها تأكلون أكلاً مزيئاً مزيئاً .

وعبر بقوله - تعالى - « أوردتموها » للاشعار بأنها قد صارت إليهم بفضل
الله وكرمه ، كما يصير الميراث إلى الوارث .

وقوله « بما كنتم تعملون ، بيان للأسباب التي أوصلتهم إلى هذه المنازل
العالية ، فإن أعمالهم الطيبة التي تقبلها الله - تعالى - منهم ، جعلتهم - بفضل
وإحسانه - في أعلى الدرجات وأسماءها .

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين الأحيار والأشرار ، جاء الحديث
عن سوء عاقبة الكافرين ، بعد الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال
- تعالى - : « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، » .

أى : إن الكافرين بالحق ، الراسخين في الإجرام ، الكاملين فيه ،
سيكونون يوم القيامة ، في عذاب جهنم خالدين فيه خلوداً أبدياً .

« لا يفتر عنهم ، أى : لا يخفف عنهم العذاب ، فقوله « يفتر » مأخوذ
من الفتور بمعنى الهدوء والسكون . يقال : فترت الحمى إذا خفت حدتها .
وفتر المرض إذا سكن قليلاً .

« وهم فيه ملبسون أى : وهم في هذا العذاب في أقصى درجات الحزن

والذلة واليأس يقال : أبلس فلان إبلاسا ، إذا سكت عن الكلام سكوتا مصحوبا بالحزن وانقطاع الحجة .

ثم بين - سبحانه - أن ما نزل به هؤلاء المجرمين من عذاب كان بسبب كفرهم فقال - تعالى - : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) .

أى : نحن ما ظلمنا هؤلاء الكافرين بإنزال هذا العذاب المهيمن الدائم بهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، بإستجابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم العمى على الرشد .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم بعد نزول العذاب بهم فقال : دونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك ... ،

والمراد بذلك سؤال مالك خازن النار . واللام فى قوله : ليقتض ، لام الدعاء .

أى : وبعد أن طال العذاب على هؤلاء الكافرين ، نادوا فى ذلة واستجداء قائلين لخازن النار ، يا مالك أدع لنا ربك كى يقضى علينا ، بأن يمتقنا حتى نستريح من هذا العذاب .

فالمراد بالقضاء هنا : الإهلاك والإماتة ، ومنه قوله - تعالى - : د فوكره موسى فقتضى عليه ... ، أى : فأهلكه .

وفى هذا النداء ما فيه من المكرب والضيق ، حتى لإنهم ليتمنون الموت لئلى يستريحوا مما هم فيه من عذاب .

وهنا يحيتهم الرد الذى يزيدهم غما على غمهم ؛ وهو قوله - تعالى - : د قال لأنكم ما كثون ، أى : قل مالك فى الرد عليهم : لأنكم ما كثون فيها بدون موت يريحكم من عذابها ، وبدون حياة تجدون معها الراحة والأمان .

وقوله - سبحانه - : د لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون . تأكيد منه - تعالى - وتقرير لرد مالك عليهم ، ومبين لسبب مكشهم فيها .

أى: لقد جئناكم - أيها الكافرون - بالحق على السنة رسلنا، الذين لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا وسلموها معكم في الارشاد إلى طريق الهدى ، ولكن أكثركم كان كارها للحق والهدى ، معرضا عنهما لإعراضا كليا ، مضرا على على كفره وشركه .

وعبر - سبحانه - بالأكثر ، لأن قلة منهم لم تكن كارها للحق ، ولكنها كانت متفاداة لأمر سادتها وكبرائها . . أما الذين كانوا يعرفون الحق ولكن يكرهونه ، فهم الزعماء والكبراء ، لأنهم يرون في اتباعه إنتقاصا من شموانهم وقصادما مع أهوائهم .

ثم وبخهم - سبحانه - على مكرهم ، وبين أنه مكر باثر خائب فقال : د أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون ،

و د أم ، هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والجملة السكريمة كلام مستأنف مسوق لتأنيب المشركين على ما دروه من كيد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين . والابرام : الاتقان للشيء والإحكام له ، وأصله القتل المحكم . يقال : أبرم فلان الحبل ، إذا أنقن قتله .

أى : بل أحكموا كيدهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولاصحابه ؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد خاب ظنهم ، لأن مكرنا أعظم من مكرهم ، وكيدنا يزهد كيدهم .

فالقصود بالآية السكريمة الإنتقال من عدم إجابة فدائهم ، إلى تأنيبهم على ما كان منهم في الدنيا من مكر بالحق وأهله ، وكيف أن هذا المكر السوء كانت نتيجته الخسران لهم .

وقوله - سبحانه - . . د أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم . . . ،
توبيخ آخر لهم على جهلهم ولأنهم لم يلاحظوا بصائرهم
والمراد بالسر هنا : حديثهم مع أنفسهم . والمراد بنجواهم : ما تكلم به بعضهم مع بعض دون أن يطلعوا عليه أحدا غيرهم

أى : بل أظن هؤلاء الجاهلون أننا لا نعلم ما يتحدثون به مع أنفسهم ، وما يتحدثون به مع غيرهم في خفية وإستتار

وقوله - سبحانه - : « بلى ورسلنا إليهم بكتوب ، أى : إذا كانوا يظنون ذلك فقد خابوا وخسروا ، فإننا نعلم سرهم ونجواهم ، ورسالنا الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ملازمون لهم ، ويسجلون عليهم كل صغيرة وكبيرة

وبعد هذا التهديد والوعيد لأولئك الكافرين ... تأخذ السورة الكريمة في تلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحجّة التي يجابههم بها وفي تسليته عما أصابه منهم ؛ وفي الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله من تمجيد وتعظيم ، ثم تختتم بهذا النداء الخاشع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - لخالقه - عز وجل فتقول :

« قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْنُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَهُ دُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَإِثْنٌ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٨) وَقِيلَ يَا رَبُّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) » .

و « إن ، في قوله - تعالى - « قل إن كان الرحمن ولد ... » يرى بعضهم أنها شرطية ، وأن الكلام مسوق على سبيل الفرض والتقدير .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - رداً على هؤلاء الكافرين الذين نسبوا الولد إلى الله - تعالى - ، قل لهم : إن كان الرحمن ولد - على سبيل الفرض والتقدير - فأنا أول العابدين لهذا الولد ، ولكن هذا الفرص قد ثبتت استحالة يقينا لا شك معه ، فما أدى إليه ، وما ترتب عليه من نسبتكم الولد إلى الله - تعالى - محال - أيضاً - ، وإذا قلنا لا أعبد إلا الله - تعالى - وحده ، وأنزهه - سبحانه - عن الولد أو الشريك .

ومن الآيات الكريمة التي نمت عن الله - عز وجل - الولد ، قوله - تعالى : « يدبّع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم يكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » (١) .

وقوله - عز وجل - : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً » (٢) .

ومن المفسرين الذين رجحوا أن تكون « إن » هنا شرطية ، الإمام ابن جرير ، فقد قال بعد أن ذكر بعض الأقوال في ذلك : « وأولى الأقوال عندنا بالصواب في ذلك ، قول من قال : معنى « إن » الشرط الذي يقتضى الجزاء . ومعنى الكلام : قل يا محمد لمشركي قومك ، الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، إن كان الرحمن ولد - على سبيل الفرض - فأنا أول العابدين ، وإلا كنه لا ولد له فأنا أعبده لأنه لا ينبغى أن يكون له ولد .

وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه ، لم يكن على وجه الشك ، ولكن على الإلصاف في الكلام ، وحسن الخطاب ، كما قال - رجل ثناؤه -

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٢) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٢

« ولأننا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، » (١) .

وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - : « قل ، يا محمد ، إن كان للرحمن ولد فأننا أول العابدين » .

أى : لو فرض هذا لعبده على ذلك ، لأنى هدى من عبده ، مطيع لجميع ما أمرنى به ، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض كان هذا ، ولكن هذا ممنوع فى حقه - تعالى - ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز - أيضا - كما قال - تعالى - : لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ، (٢) .

وقال صاحب الكشف - رحمه الله - : قوله - تعالى - : « قل إن كان للرحمن ولد... » وصح ذلك وثبت بمرمان صحيح .. « فأننا أول العابدين ، أى : فأننا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته .. »

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لفرض ، وهو المبالغة فى نفى الولد ، والإطئاب فيه .. وذلك أنه علق العبادة بكنوثة الولد ، وهى محال فى نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ... ، (٣)

ويرى بعض العلماء أن « إن » فى الآية نافية بمعنى ما ، فيكون المعنى : قل - أيها الرسول - هؤلاء الكافرين : ما كان للرحمن من ولد ، وما صح وما أمكن ذلك ، فهو مستحيل عقلا وشرعا ... وما دام الأمر كذلك ، فأننا أول العابدين لله - تعالى - ، المنزهين له عن الولد والشريك وغيرهما .

قال الإمام القرطبي : قوله - تعالى - : « قل إن كان للرحمن ولد... »

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٥ ص ٦١

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٨ .

(٣) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٦٥

اختلف في معناه ، فقال ابن عباس والحسن والسدي : المعنى : ما كان للرحمن ولد . . . إن ، بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبدى بقوله - تعالى - : فإنا أول العابدين ، . . .

وقيل المعنى : قل يا محمد ، إن ثبت لله ولد ، فإنا أول من يعبد ولده ولكن يستحيل أن يكون له ولد . وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل ، فإنا أول من يعتقده . وهذا مبالغة في الاستبعاد ، أى : لا سبيل إلى اعتقاده . . .

و « إن » ، على هذا للشرط ، وهو الأجود . . .

وقيل إن معنى « العابدين » ، الآتفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العبدان . . . بغير ألف ، يقال : عبد - بكسر الباء - يعبد عبدا - بفتحها - إذا أنف وغضب فهو عبد ، وبالاسم العبدية ، مثل الأنفة . . . (١) .

ويبدو لنا أن الرأيين يؤديان إلى نفي أن يكون لله - تعالى - ولد وإن كان الرأي الأول - وهو أن حرف « إن » للشرط - هو المتبادر من معنى الآية . وعليه جمهور المفسرين .

ثم نزه - عز وجل - ذاته عن أقوال المفترين فقال : « سبحان رب السموات والأرض ، رب العرش عما يصفون » .

وسبحان : اسم مصدر بمعنى التنزيه والتقديس ، منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف . أى : سبحت الله - تعالى - تسبيحا ، ونزهته تنزيها ، عن أن يكون له ولد أو شريك ، فهو - عز وجل - رب السموات . ورب الأرض رب العرش العظيم ، وهو المتعالى عن كل ما وصفه الكافرون والفاسقون من صفات لا تليق بجلاله .

وجاء هذا التنزيه والتقديس بلفظ « سبحان » ، لا بلفظ الفعل سبح أو

يسبّح ، لأن النقص الذي أرادوا إلصاقه به شنيع ، فكان من المناسب أن يؤتى بأقوى لفظ في التنزيه والتفديس .

و د ما ، في قوله : د عما يصفون ، مصدرية ، أى : عن وصفهم لله الولد . ويصح أن تكون موصولة والعائد محذوف . أى : عن الذى يصفونه به .

وفى إضافة رب إلى العرش ، مع أنه أعظم الأجرام ، تنبيه على أن جميع المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته ، فكيف يتخذ من خلقه ولدا ١٩

والفاء فى قوله - تعالى - ، د قد رم يخوضوا ويلعبوا ... ، للإفصاح عن شرط مقدر ...

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فارك هؤلاء الكافرين يخوضون فى باطلهم ، وينهمكون فى لعبهم ، ..

د حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، وهو يوم القيامة ، الذى سنحاسبهم فيه حسابا عسيراً ، ونعاقبهم بالعقوبة التى يستحقونها ...

فآية الكرسي تسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه منهم من أذى ، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الشنيعة .

نم أكد - سبحانه - أنه هو الإله الحق ، وأن كل ما عداه باطل ، فقال : وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله ، وهو الحكيم العليم .

والجار والمجرور فى قوله ، فى السماء وفى الأرض ، متعلق بلفظ د إله ، لأنه بمعنى معبود أو بمعنى : مستحق للعبادة ، وهذا اللفظ الكريم خير مبتدأ محذوف ، أى : هو إله ..

والجار والمجرور فى قوله ، فى السماء وفى الأرض ، متعلق بلفظ د إله ، لأنه بمعنى معبود أو بمعنى : مستحق للعبادة ، وهذا اللفظ الكريم خير مبتدأ محذوف ، أى هو إله ...

أى : وهو - سبحانه - وحده المعبود بحق فى الأرض ، لا إله غيره ، ولا

رب سواه ، وهو - عز وجل - ، الحكيم ، في كل أقواله وأفعاله ، العليم ، بكل شيء . في هذا الوجود .

فآية الكريمة تدل على أن المستحق للعبادة من أهل السماء ومن أهل الأرض ، هو الله - تعالى - . وكل معبود سواه فهو باطل .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : « وهو الذي في السماء إله ... » الجار والمجرور متعلق بلفظ إله ، لأنه بمعنى معبود في السماء ومعبود في الأرض ...

وبما تقرر من أن المراد بإله : معبود ، اندفع ما قيل من أن هذا يقتضى تعدد الآلهة ، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ، كقولك : أنت طالق وطالق .

وإيضاح هذا الإندفاع ، أن الإله بمعنى المعبود ، وهو - تعالى - معبود فيهما ، والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ، ومعبوديته في الأرض ، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين . فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض ، صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد . وفيه دلالة على اختصاصه - تعالى - باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الاختصاص ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما .. » ثناء منه - سبحانه - على ذاته بما هو أهله .

ولفظ « تبارك » فعل ماض . أى تعالى الله وتعظيم ، وزاد خيره وكثر إنعامه ، وهو مأخوذ من البركة - بفتح الراء - بمعنى الكثرة من كل خير ...

أو من البرك - بسكون الراء - بمعنى الثبوت والدوم . . . وكل شئ . ثبت ودام وقد برك .

أى : وتعالى الله وتقدس ، وثبت خبره . وزاد إنعامه . فهو - سبحانه - الذى له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما بينهما من مخلوقات أخرى لا يعلمها أحد سواه .

ووعنده علم الساعة ، أى : وعنده وحده لا عند غيره العلم التام بوقت قيام الساعة .

فالمصدر وهو علم ، مضاف لمفعوله وهو ، الساعة ، والعالم بذلك هو الله تعالى . -

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لسرعة قيامها ، كما قال تعالى - ، « ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . . . » .

وإليه ترجعون ، أى : وإليه وحده مرجعكم للحساب أو الجزاء ، وليس إلى أحد سواه - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - أنه لا شفاعاة لأحد إلا بإذنه ، فقال . « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعاة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

والمراد بالموصول فى قوله : « ولا يملك الذين يدعون . . . » الأصنام وغيرها بما عبد من دون الله تعالى - ، وهو فاعل ، وجلة يدعون ، صلة لأعمل لها من الإعراب ، والعائد محذوف . .

والشفاعة من الشفع بمعنى الضم ، لأن الشفعين ينضم إلى المشفوع له ، فيصير شفعا بعد أن كان فردا .

والاستثناء فى قوله « إلا » لأن شهد بالحق ، متصل ، لأن المستثنى منه عام ، ثم استثنى منه الموحدون ، كعيسو ابن مريم .

والمعنى : ولا يملك المعبودون من دون الله - تعالى - الشفاعة لأحد من الناس ، إلا من شهد بالحق منهم ، وأخلص العبادة لله تعالى - وحده ، كعيسى ابن مريم ، وعزير ، والملائكة ، فهؤلاء يملكونها إذا أذن الله - سبحانه - لهم بها .

ويحوز أن يكون الاستثناء منقطعاً ، إذا كان المستثنى منه خاصاً بالآصنام ، فيكون المعنى : ولا يملك الآصنام الشفاعة لأحد ، لكن من شهد بالحق وبوحدانية الله كعيسى ابن مريم وغيره ، فإنه يملكها بإذن الله - تعالى - .

ويصح أن يكون المراد بقوله : « إلا من شهد بالحق » المؤمن المشفع فيه . فيكون المعنى : ولا يملك أحد الشفاعة لأحد ، إلا لمن آمن بالله - تعالى - وشهد الشهادة الحق وهو المؤمن ، فإنه يحوز الشفاعة له ، أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له ، كما قال - تعالى - : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ... » .

وجملة « وهم يعلمون » حالية . أى : والحال أنهم يعلمون علماً يقيناً ، أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - .

وقيد - سبحانه - الشهادة بقوله « وهم يعلمون » للاشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هي المعتدة ، أما الشهادة بدون علم بالمشهد به فإنها لا تكون كذلك .

وجمع - سبحانه - الضمير « هم » باعتبار معنى « من » ، وأفرده في ضمير « شهد » باعتبار لفظها .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، فأنى يؤفكون .

أى : والله لئن سألت - يا محمد - هؤلاء الكافرين عن خلقهم وخلق من يعبدونهم من دون الله ، ليقولن الله هو الخالق لكل المخلوقات .

وقوله : « فأنى يؤفكون » استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة

أى : مادمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله ، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره . وكيف أشركتم معه غيره في ذلك مع اعتزافكم بأذن - سبحانه - هو الخالق لكل شيء .^١

يقال : أفك فلان فلانا بأفك إفكا - من باب طرب وعلم - إذا صرفه وقلبه عن الشيء . وسميت قرى قوم لوط بالمؤتفكات لأن جبريل جعل عاليها سافلها بأمر الله - تعالى - .

ثم حكى - سبحانه - ما نضرع به الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه فقال : ، قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون

والقيل ، والقال ، والقول . . . كلها مصادر بمعنى واحد . والضمير يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء ، على أنه معطوف على قوله - تعالى قبل ذلك : ، سرهم ونجواهم ، ويكون مقول القول : ، يارب إن هؤلاء قوم لا يعلمون ، .

والمعنى : أياحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون ، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم ، ولا نسمع نضرع رسولنا إلينا بقوله : ، يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، ؟ إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان ، فقد كذبوا وخسروا ، لأننا نعلم ذلك وغيره علما تاما . ويصح أن يكون قوله - تعالى - ، وقيله ، منصوبا بفعل محذوف والتقدير : ويعلم قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . . .

وقرأ عاصم وحمة وقيله ، بكسر اللام والهاء ، عطفا على الساعة أى : وعنده - سبحانه - علم الساعة ، وعلم قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - يارب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون .

والتعبير بالنداء بلفظ الرب ، يشعر بالقرب ، ويوحى بالإجابة ، وبفيد كال التضرع . . .

كما أن التعبير بقوله ، قوم ، يشير إلى أن كفرهم كان كفرا جماعيا ، لا كفرا فرديا .

وقوله - تعالى - فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ، إن شاحو تسليية
 من الله - تعالى - لئيبه . أى : فأعرض عنهم ، ولا تطمع في إيمانهم لشدة
 كفرهم ، وقل سلام ، أى : وقل لهم : أرى وشأني الآن مسالمةكم
 ومشاركتكم ... فسوف يعلمون ، سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم .
 وبعد : فهذا تفسير لسورة الزخرف ، فسأل الله - تعالى - أن يجعله
 خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر
 كتبه الراجي عفو ربه

صباح الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ د . محمد سيد طنطاوى

١٩٨٠/١١/٨ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الدخان

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

(الجزء الخامس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة «الدخان» من السور المسكية ، وعدد آياتها ، تسع وخمسون آية في المصحف السكوفي ، وسبع وخمسون في البصري ، وست وخمسون في غيرهما . وكان نزولها بعد سورة «الزخرف» .

٢ - وقد افتتحت بالثناء على القرآن الكريم ، وأنه قد أنزل - سبحانه - في ليلة مباركة ، قال - تعالى - : : «لنا أنزلناه في ليلة مباركة لنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم»

٣ - ثم تحدثت عن جانب من العقوبات الدنيوية التي عاقب الله - تعالى - بها كفار قريش ، وذكر ما تضرعوا به إلى الله لكي يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء ، فلما كشفه - تعالى - عنهم عادوا إلى كفرهم وعنادهم . . .

قال - تعالى - : : «بل هم في شك يلعبون» . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . . .

٤ - ثم سافت جانباً من قصة فرعون مع موسى - عليهما السلام - ، فينت أن موسى دعا فرعون وقومه إلى وحدانية الله - تعالى - ، ولكنهم أصروا على كفرهم ، فكانت عاقبتهم الإغراق في البحر ، دون أن يحزن هلاكهم أحد ، وأنهم قد تركوا من خلفهم ما تركوا من جنات ونعيم . . .

قال - تعالى - : : «كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فابك عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . . .

٥ - وبعد ان هدت السورة الكريمة مشركى مكة على أقوالهم الباطلة فى شأن البعث، وردت عليهم بما يدحض حججهم، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، وختمت بتسلياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أذى ، ووعدته بالنصر على أعدائه ، قال - تعالى - :
 «فإنما يسرناه بلسانك لهم يتذكرون . فارتقب لإنهم مرتقبون .

٦ - هذا والمتدبر فى هذه السورة الكريمة يراها تمتاز بقصر الآيات ، وبأسلوبها الذى تبرز فيه ألوان متعددة من تهديد المشركين ، تارة عن طريق تذكيرهم بالحق الذى نزل بهم ، وتارة عن طريق ما حل بالمكذابين من قبلهم ، وتارة عن طريق ما ينتظرهم من عذاب مهين ، إذا ما استمروا على كفرهم ...

كما يراها تنى على القرآن بألوان متعددة من الثناء ، وتبشر المتقين ببشارات متنوعة ، وتطوف بالنفس الإنسانية فى عوالم شتى ، لتهدىها إلى الصراط المستقيم ، ولترشدها إلى طريق الحق واليقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - مساء الجمعة

٢٥ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ

الموافق ٨ من نوفمبر سنة ١٩٨٥ م

التفسير

قال تعالى : دَحَمَ (١) والكتاب المبين (٢) إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذرينَ (٣) فيها يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إنا كنا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) .

سورة والدخان، من السور المبدوءة بالحروف المقطعة، وقد سبق أن قلنا إنَّ أقرب الآراء إلى الصواب في معناها: أن الله - تعالى - جاء بها في أوائل بعض السور للتجديد والتعجيز والتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله - عز وجل - فكأنه - تعالى - يقول المسكدين : هذا هو القرآن ، مؤلف من كلمات وحروف هي من جنس ما تتخاطبون به ، فإن كنتم في شك في كونه من عنده - تعالى - ، فأتوا بسورة من مثله . فعجزوا واقلبوا خامرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

والواو في قوله - تعالى - : والكتاب المبين ، للقسم ، وجوابه : إنا أنزلناه في ليلة مباركة

والمراد بالليلة المباركة : ليلة القدر ..

أى : وحق هذا القرآن الواضح الكلمات ، البين الأسلوب ، لقد ابتدأنا إنزاله في ليلة كثيرة البركات والخيرات .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذه الليلة بأنها مباركة ، لزيادة خيرها وفضلها ، ولما تتابع فيها من نعم دينية ودنيوية ..

وقه - تعالى - أن يفضل بعض الأزمنة على بعض . وبعض الأمكنة على بعض . وبعض الرسل على بعض .. لاراد لفضله ، ولا معقب لحكمه ..

قال الإمام ابن كثير : يقول لله - تعالى - : د خبرا عن هذا القرآن الكريم : أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهى ليلة القدر ، كما قال - تعالى - : د إنا أنزلناه في ليلة القدر ... ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، كما قال - تعالى - : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، ..

وما قال بأنها - أى : الليلة المباركة - ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها فى رمضان .. (١)

هذا وقد فصل بعضهم أدلة من قال بأن المراد بها ليلة القدر ، وأدلة من قال بأن المراد بها ليلة النصف من شعبان (١) .

والحق أن المراد بها ليلة القدر ، التى أنزل فيها القرآن من شهر رمضان ، كما نصت على ذلك آية سورة البقرة التى تقول : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ...

والاحاديث التى أوردتها بعضهم فى أن المراد بها ليلة النصف من شعبان ، أحاديث مرسلّة أو ضعيفة ، أو لا أساس لها . فثبت أن المراد بها ليلة القدر .

وقوله - سبحانه - : د إنا كنا منذرين ، استئناف مبين لمقتضى الإنزال . والإنذار : إخبار فيه تخويف وترهيب ، كما أن التبشير إخبار فيه تأمين وترغيب .

أى : أنزلنا هذا القرآن فى تلك الليلة المباركة ، أو ابتدأنا إنزاله فيها ،

(١) تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٢٢

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ٢ ص ٩٩ . وتفسير الألوسى

لأن من شأننا أن نخوف بكتبنا ووحينا ، حتى لا يقع الناس في أمر نهيناهم عن الوقوع فيه .

وقوله - تعالى - : « فيها يفرق كل أمر حكيم ، جملة مستأنفة - أيضا - لبيان وجه تخصيص هذه الليلة بإنزال القرآن فيها .

وقوله « يفرق ، أى : يفصل ويبين ويكتب . و « حكيم ، أى : ذو حكمة ، أو محكم لا تغيير فيه .

أى : فى هذه الليلة المباركة يفصل ويبين ويكتب ، كل أمر ذو حكمة باهرة ، وهذا الأمر صادر عن الله - تعالى - ، الذى لا راد لقضائه ، ولا مبدل لحكمه .

وقال صاحب الكشف ما ملخصه : فإن قلت : « إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم ، ما موقع هاتين الجملتين ؟

قلت : هما جملتان مستأنفتان ، فسر بهما جواب القسم الذى هو قوله - تعالى - : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » ، كآية قبل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه فى هذه الليلة خصوصا ، لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم . .

ومعنى « يفرق ، يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم . . . » (١)

ثم بين - سبحانه - أن مرد هذه الكتابة والتقدير للأشياء إليه وحده فقال : « أمرا من عندنا . . . »

ولفظ « أمرا . . » يرى بعضهم أنه حال من « كل أمر . . » ، أى : يفرق فى هذه الليلة المباركة كل أمر ذو حكمة ، حالة كون هذا الأمر من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا .

ويصح أن يكون منصوباً على الاختصاص ، وتنكيره للتفخيم ، أى :
أعني بهذا الأمر الحكيم ، أمراً عظيماً كائننا من عندنا وحدنا . وقد اقتضاه
علمنا وتدبيرنا . . .

وقوله : « إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك . . . » بدل من قوله : « إنا
كنا منذرين . . . »

أى : أنزلنا هذا القرآن ، فى تلك الليلة المباركة لأن من شأننا إرسال
المرسلين إلى الناس ، لأجل الرحمة بهم ، والهداية لهم ، والرعاية لمصالحهم .
وقوله : « لأنه هو السميع العليم ، تعليل لما قبله . أى : فعل ما فعل من
أنزال القرآن ، ومن إرسال الرسل ، لأنه - سبحانه - هو السميع لمن تضرع
إليه ، العليم بجميع أحوال خلقه .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته فقال :
« رب السموات والأرض وما بينهما . . . » من هو ، ومن مخلوقات لا يعجزها
إلا الله - تعالى . . .

« إن كنتم موقنين ، أى : إن كنتم على يقين فى إقراركم حين تسألون عن
خلق السموات والأرض وما بينهما . . . »

وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم من أهل الإيقان ، علمتم بأن الله
- تعالى - وحده ، هو رب السموات والأرض وما بينهما .

« لا إله إلا هو ، - سبحانه - » يحى ، من يريد إحياءه ، ويميت ، من يريد
إماتته ، هو - تعالى - « ربكم ورب آبائكم الأولين . . . »

أى : هو - سبحانه - الذى تعهدكم بالرعاية والتربية والخلق ، كما فعل ذلك
مع آبائكم الأولين ، الذين أنتم من نسلهم . . .

ثم بين - سبحانه - أحوال الكافرين ، وكيف أنهم عندما ينزل بهم العذاب ،
يجأرون إلى الله - تعالى - أن يكشفه عنهم . . . فقال - تعالى - :

« بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنِي لَهُمُ الْفَتْكُرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) » .

و د بل ، في قوله - تعالى - : د بل هم في شك يلعبون ، للاضراب الإبطالي ، لأن المقصود من الآية الكريمة ، نفى إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله ، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان ، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك ، لأخلصوا الله - تعالى - العبادة والطاعة .

فيكون المعنى : إن هؤلاء الكفار لم يكوّنوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله ، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعاب .

قال الألوسي : قوله : د بل هم في شك ... ، لإضراب إبطالي ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجب . وتزوين د شك ، للتعظيم . أي : في شك عظيم . د يلعبون ، أي : لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان ، بل يقولونه مخلوطاً بهز و لعب . وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم ... والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم ، وإهمال أمرهم ... ، (١) .

والذاء في قوله - تعالى - : د فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، لقرئيب ما بعدها على ما قبلها ، وتفسيرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمره بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم .

والارتقاب : الانتظار ، وأكثر ما يستعمل الارتقاب في الأمر المكروه .
والمراد باليوم مطلق الوقت ، وهو مفعول به لارتقب .

قال الألوسي ما ملخصه : « والمراد بالسماء جهة العلو . وإسناد الإتيان بذلك إليها ، من قبيل الإسناد إلى السبب ، لأنه يحصل بعدم إمطار ... » .

أي : فارتقب يوم تأتي السماء بجذب ومجاعة ، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كثيثة الدخان ، وهي ظلمة تعرض للبصر لضعفه ... وإرادة الجذب والمجاعة منه مجاز ، من باب ذكر المسبب وإرادة السبب ... وبعض العرب يسمي الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك أن الدخان مما يتأذى به فأطلق على كل مؤذ يشبهه ، وأريد به هنا الجذب ، ومعناه الحقيقي معروف ، (١) .

وللمفسرين في معنى هذه الآية اتجاهات أولها : ماورد في الحديث الصحيح من أن مشركي مكة ؛ لما أصرروا على كفرهم وعلى إعراضهم عن الحق ، دعا عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف ... ، فأصابهم القحط والبلاء والجموع ... » .

وكفى عن ذلك بالدخان ، لأن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان ، فيقولون : كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، .

والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد ضعفه ، أظلمت عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة بالدخان .

روى البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : إن قریشا لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ...

فقيل : يا رسول الله ، استسقى الله لمضر فإنها قد هلك ، فاستسقى لهم فسقوا ، فأنزل الله : « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون » .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وهو عند الترمذى والنسائى في تفسيرهما ، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة (١) .

وعلى هذا رأى يكون الدخان قد وقع فعلا ، بمعنى أن المشركين قد أصابهم بلاء شديد في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أما الاتجاه الثانى فىرى أصحابه ، أن المراد بالدخان ، ما يكون قبل يوم القيامة من دخان يسبق ذلك ، كعلامة من علامات البعث والنشور . . واستدل أصحاب هذا الاتجاه بأحاديث ذكرها المفسرون .

قال ابن كثير : وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى . قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غرفته ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : لا نقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال وثلاثة خسوف : خسوف بالمشرق وخسوف بالمغرب ، وخسوف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا ، .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك أحاديث أخرى . . وقال فى نهايتها : والظاهر أن ذلك يوم القيامة (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٢٢

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٢٣

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى سياق الآيات التي ذكرها الله - تعالى - في هذه السورة ، ولا يتعارض ذلك مع كون ظهور الدخان علامة من علامات قرب يوم القيامة ، كما جاء في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ، الذي ذكره ابن كثير - رحمه الله - وقال في شأنه : تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه .

ومن المفسرين الذين رجحوا الاتجاه الأول الإمام الطبري؛ فقد قال بعد أن ساق هذين القولين : وأولى القولين بالصواب في ذلك قول ابن مسعود؛ من أن الدخان الذي أمر الله - تعالى - نبيه أن يرتقبه ، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم . . .

وإنما قلت القول الذي قاله ابن مسعود - رضي الله عنه - هو أولى بتأويل الآية ، لأن الله - تعالى - توعد بالدخان مشركي قريش . . . ولأن الأخبار قد تظاهرت بأن ذلك كائن . .

والمعنى : فانتظر يا محمد لمشركي قومك ، يوم تأتيهم السماء من البلاء الذي يحل بهم ، بمثل الدخان المبين ، (١) .

ومنهم - أيضا - الإمام الألوسي ، فقد قال - رحمه الله - : هذا ، والأظهر حل الدخان على ما روى عن ابن مسعود ، لأنه أنسب بالسياق ، لما أنه في كفار قريش ، وبيان سوء حالهم ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : : يغشى الناس ، صفة ثانية للدخان . والمراد بهم كفار مكة وأمثالهم من أصابه الجوع والبلاء .

أي : ارتقب - أيها الرسول الكريم - يوم تأتي السماء لهؤلاء المشركين

(١) راجع تفسير ابن جرير ٢٥٥ ص ٦٨

(٢) راجع تفسير الألوسي ٢٥٥ ص ١١٨

بعذاب من صفاته أنه عذاب واضح ، يحسونه بجواسمهم ، ويشعرون به شعورا جليا . ومن صفاته كذلك أنه يحيط بهم من كل جوانبهم ، ويجعلهم يتضرعون إلينا ويقولون : « هذا عذاب أليم ، أرى : شطيد الله ، وعظيم هوله .

ثم يقولون - أيضا - : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » ، أى : ياربنا أزل عنا هذا العذاب الممثل فى الجوع والمرض وغيرهما ، فإنك إن رفعت عنا ذلك آمنا برسولك - صلى الله عليه وسلم - ، واتبعنا دعوته ، ولكنهم بعد أن كشف الله - تعالى - عنهم هذا العذاب ، نقضوا عهدهم ، وأصرروا على كفرهم .

ولذا عقب الله - تعالى - على تضرعهم هذا بقوله : « أرى لهم الذكرى » ، أى : كيف يتأتى لهم التذكر والاعتبار والاتعاظ ...

والحال أنهم « قد جاءهم رسول مبين ، هو محمد - صلى الله عليه وسلم - ، الذى لم يترك بابا من أبواب الخير إلا وأرشدهم إليه ، ولم يترك وسيلة من وسائل الهداية إلا وسلكها معهم ...

ولكنهم استجبوا العمى على الهدى ، ولذا أكد القرآن ذلك فقال : « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » .

أى : كيف يتعظون والحال أنه قد جاءهم رسول عظيم الشأن ، موضح للحق أكل توضيح ، فما كان منهم بعد أن استمعوا إليه ، إلا الإعراض عن دعوته ، ولم يكتبوا بهذا الإعراض والصدود ، بل قالوا فى شأنه بجهالة وسوء أدب : « معلم » ، أى : إنسان يعلمه غيره من البشر ، وقالوا فى شأنه - أيضا - « مجنون » ، أى : مختلط فى عقله .

ثم - بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله عليهم ، ورحمته بهم ، فقال : « إنا وكاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون » .

أى : إنا بفضلنا ورحمتنا كاشفوا العذاب عنكم كشفًا قليلًا - أيها المشركون - ، واسكنكم لم تقابلوا فضلنا عليكم ، ورحمتنا بكم ، بالشكر والطاعة بل قابلتم ذلك بالإصرار على الكفر ، والثبات على الجحود .

فالمراد بقوله - تعالى - : إنكم عائدون ، : عزمهم وإصرارهم على الاستمرار على الكفر ، لأنهم لم يوجد منهم إيمان ، حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر ، وإنما الذى وجد منهم هو الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب ، فلما انكشف عنهم ، نقضوا عهودهم ، واستمروا على كفرهم .

وشبهه هذه الآية قوله - تعالى - : وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن لم تهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، (١) .

ثم هددهم - سبحانه - تهديدًا ترتد له القلوب فقال : اليوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ، .

رقوله : يوم ، منصوب بفعل مقدر . وقوله : نبطش ، من البطش بمعنى الأخذ بقوة وعنق . يقال بطش فلان بفلان يبطش به ، إذا نكل به تنكيلا شديدا .

أى : اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم أن نأخذ هؤلاء الكافرين أخذ عزيز مقتدر ، حيث ننتقم انتقاما ينالهم ويخزيهم .

وهذا البطش الشديد منالهم سيكون جزءا منه فى الدنيا ، كانتقامنا منهم يوم بدر وسيكون أشده وأعظمه وأدومه عليهم . . . يوم القيامة ،

وبذلك نرى السورة الكريمة بعد أن مدحت القرآن الكريم مدحا عظيما، وبينت جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، أخذت في تسليمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، وهددت هؤلاء الأعداء بسوء المصير في الدنيا ، وفي الآخرة .

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، وكيف أن الله - تعالى - أجاب دعا نبيه موسى ، فأهلك فرعون وقومه ، ونجى موسى وبني إسرائيل من شرورهم فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّيَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّايَ أَتَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عَذَّبْتُ بِرَبِّي وَرَبُّكُمْ أَنْ تَرْجُونَ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَىٰ فُتْنًا يُوقِنُ (٢١) فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرَبْنَا بِعَبَادِي لَيْلًا لِّإِنكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَوَيْونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَابْكُوا عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مِنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاكُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) » .

واللام في قوله - تعالى - : « ولقد فتنا قوما فرعون . . » موضحة
للقسم . وقوله « فتنا » من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان . يقال : فتنت
الذهب بالنار ، إذا أدخلته فيها لتعرف جودته من رداءته .

والمراد به هنا : إختبارهم وامتحانهم ، بإرسال موسى - عليه السلام -
وبالتوسعة عليهم تارة ، وبالتضييق عليهم تارة أخرى .

والمعنى : والله لقد اختبرنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك - أي الرسول
الكريم - إلى هؤلاء المشركين ، وكان إختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال
نبينا موسى إليهم ، وعن طريق إبتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون
إلى طاعتنا ، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم .

فآية الكريمة المقصود بها تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم عما أصابه
من قومه ، ببيان أن تكذيب الأقوام لرسولهم ، حاصل من قبله ، فعليه أن
يتأني بالرسل السابقين في صبرهم .

والمراد بالرسول الكريم في قوله تعالى - : « وجاءهم رسول كريم ، :
موسى - عليه السلام - ، فقد أرسله - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، فبلغهم
رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه وعصوه ... »

ووصف - سبحانه - نبيه موسى بالكرم ، على سبيل التثنية له ، والإعلاء
من قدره ، فقد كان - عليه السلام - كلياً لربه ، ومطيعاً لأمره ، ومحتلياً
باسمى الأخلاق وأفضلها .

و « أن » في قوله - تعالى - : « أن أدوا إلى عباد الله ... » مفسرة ، لأن
جاء الرسول إليهم يتضمن معنى القول . وقوله : « أدوا إلى » بمعنى سلّموا
إلى ، أو ضموا إلى ...

وقوله : « عباد الله » مفعول به . والمراد بهم بنو إسرائيل .

والمعنى : جاء إلى فرعون وقومه رسول كريم ، هو موسى - عليه السلام - .

فقال لهم : سلّوا إلى بني إسرائيل ، وأطلقوهم من الذل والهوان ، واتركوهم يعيشون أحراراً في هذه الدنيا ...

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - في موضع آخر : « فأنباه فقولا إنما رسول ربك ، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ... » (١)

ويصح أن يكون المراد بقوله « أن أدوا إلى ... » بمعنى : أن استجيبوا لدعوتي ، والمراد بالعباد : ما يشمل بني إسرائيل وغيرهم . ويكون لفظ « عباد الله » منصوب بحرف تاء محذوف .

وعليه يكون المعنى : أرسلنا إلى فرعون وقومه رسولاً كريماً ، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصيحة والإرشاد : يا عباد الله ، إني رسول الله إليكم ، فاستمعوا إلى قولي ، واتبعوا ما ادعوكم إليه من عبادة الله - تعالى - وحده . وترك عبادة غيره .

قال الألوسي : قوله : « أن أدوا إلى عباد الله ... » أي : أطلقوهم وسلموهم إلى . والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون يستعبدهم . والتعبير عنهم بعباد الله ، للإشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه لهم ...

أو أدوا إلى حق الله - تعالى - من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله ، على أن مفعول « أدوا » محذوف ، وعباد منادى ، وهو عام لبني إسرائيل والقبيل ، والأداء بمعنى الفعل للطاعة ، وقبول الدعوة . . . (٢)

وقوله - سبحانه - : « إني لـم رسول أمين » ، تعليل لما تقدم . أي : استجيبوا لدعوتي ، وأطيعوا أمري ، فإني مرسل من الله - تعالى - إليكم ، وأمين على الرسالة ، لأنني لا أبدل شيئاً مما كلفني به ربي .

وقوله - سبحانه - : « وأن لا تعلو على الله .. » معطوف على قوله : « أن أدوا ... » ، وداخل في حيز القول .

أى : قال لهم : أرسلوا معى بنى إسرائيل ، واستجيبوا لدعوتى ، واحذروا
أن تتجبروا أو تكبروا على الله - تعالى - ، بأن تستخفوا بوحىه أو تعرضوا
عن رسوله ...

« لانى آتاكم سلطان مبين ، أى : لانى آتاكم من عنده - تعالى - بحجة
واضحة لا سبيل إلى إنكارها ، وببرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى .. »

« ولانى عنيت ربى وربكم أن ترجون ، أى : ولانى اعتصمت واستجرت
بربى وربكم من أن ترجونى بالحجارة ، أو من أن تاجقوا بى ما يؤذنى ، وهذا
الاعتصام بالله - تعالى - يجعلنى لا أبالى بكم ، ولا أراجع عن تبليغ دعوته
- سبحانه - بحال من الأحوال . »

« وإن لم تؤمنوا لى فاعزلون ، أى : وقال لهم - أيضا - فى ختام نصيحته
لهم : لانى لن أراجع عن دعوتهكم إلى الحق مهما وضعتم فى طريقى من عقبات ،
وعليكم أن تؤمنوا بى ، فإن لم تؤمنوا بى ، فكُونُوا بمعزل عنى ، بحيث تتركُونى
وشأنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإنه لا موالاة ولا صلة بينى وبينكم ، مادمت
مصرين على كفركم ... »

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة
لدعوته ، ونهاهم عن التكبر والغرور ، وبين لهم أنه رسول أمين على وحي الله
- تعالى - ، وأنه معتصم بربه من كيدهم ، وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن
يتركوه وشأته ، لكن يبلغ رسالة ربه ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن
شاء فليكفر .

ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه ، لم تجد أذنا
صاغية ، فإن الطغيان فى كل زمان ومكان ، لا يعجبه منطق الحق والمعدل
والمسالمة ... ولكن الذى يعجبه هو التكبر فى الأرض بغير الحق ، وإيثار
الغنى عن الرشيد .

ولذا نجد موسى - عليه السلام - يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول - كما حكى القرآن عنه - : « فدعاه ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العباداة لله - تعالى - ونهاهم عن الإشراف به ... بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه ، وأعرضوا عن دعوته ، وأذروه بشئ ألوان الأذى ، فدعاه ربه دعاء حاراً قال فيه : يارب إن هؤلاء القوم - وهم فرعون وشيعته - قوم راسخون في الكفر والإجرام ، فأنزل بهم عقابك الذي يستحقونه .

ثم حكمت السورة الكريمة بعد ذلك ما يدل عن أن الله - تعالى - قد أجاب دعاء موسى - عليه السلام - ، وأنه - سبحانه - قد أرشده إلى ما يفعله فقال : « فأسر بعبادى أئلا إنكم متبعون » .

قال الجمل : قوله : « فأسر » قرأ الجمهور بقطع الهمزة وقرأ نافع وابن كثير بوصلها . وهما لغتان جيدتان : الأولى من أسريت والثانية من سريت . قال - تعالى - : « سبحانه الذي أسرى بعبده » ، وقال : « ونائبيل إذا يسر » ، والإسراء السير ليلاً ، فذكر الليل - هنا - تأكيداً له بغير اللفظ - إذ الإسراء والسرى : السير ليلاً ، (١) .

والكلام على تقدير القول ، أى : فقال الله - تعالى - له على سبيل التعليم والإرشاد : سر يا موسى ببني إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر ، بقطع من الليل ، إنكم متبعون ، من جهة فرعون وملكه ، متى علموا بخروجكم . « واترك البحر - رهوا ... ، أى : متى وصلت إلى البحر - أى : البحر الأحمر - فاضربه بعصاك ، ينفلق - بإذن الله - فسر فيه أنت ومن معك ، واتركه ساكناً مفتوحاً على حاله ، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه .

يقال : رها البحر يرهو ، إذا سكن . وجاءت الخيل رهوا ، أى : ساكنة .
ويقال - أيضا - : رها الرجل رهوا ، إذا فتح بين رجليه وفرق بينهما ، وهو
حال من البحر .

قال الإمام الرازى : وفى لفظ : رهوا ، قولان :
أحدهما : أنه الساكن . ، يقال : عيش راه ، إذا كان خافضا وادعا
ساكنا ..

والثانى : أن الرهو هو الفرجة الواسعة . أى : ذارهو ، أى : ذافرجة ..
حتى يدخل فيها فرعون وقومه فيغرقوا . . . وإنما أخبره - سبحانه - بذلك
حتى يبقى فارغ القلب من شرهم ولابدأهم ، (١) .

وقوله : : لا لهم جنة مغرقون ، تعاليل للأمر بترك رهوا . أى : اترك
البحر على حاله ، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقا يدمرهم ويهلكهم .

ثم بين - سبحانه - سوء ما لهم فقال : : كم تركوا من جنات وعيون ،
وكم ، هنا خبرية للتكثير والتحويل . أى : ما أكثر ما ترك هؤلاء المغرقون
خلفهم من بساتين فاضرة ، وعيون يخرج منها الماء الفير ...

« وزروع ، كثيرة متنوعة ، ومقام كريم ، أى : ومحافل ومنازل كانت
مؤينة بالوان من الزينة والزخرفة ...

« ونعمة كانوا فيها فاكهين ، أى : وتنعم ونرفه كانوا فيه يتلذذون ، بما
بين أيديهم من رغد العيش ، وكثرة الفاكهة ...

والنعمة - بفتح النون - بمعنى التنعم والتلذذ . والنعمة - بالكسر - المنة
والإنعام بالشيء . وتطلق على الجنس الصادق بالقليل والكثير .

وقوله : : كذلك ، فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر
كذلك .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : : كذلك . . . ، خير مبتدأ محذوف . أى : الأمر كذلك . فالوقف يكون على هذا اللفظ ، وتكون الجملة اعتراضية لتقرير وتوكيد ما قبلها ويبدأ بقوله : : وأورثناها قوما آخرين ، وهو معطوف على : : كم تركوا . . . ، أى : تركوا أمورا كثيرة وأورثناها قوما آخرين ، وهم بنو إسرائيل .

وقال الزمخشري . الكاف في محل نصب ، على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها . وأورثناها قوما آخرين ، ليسوا منهم فعلى هذا يكون قوله : : وأورثناها ، معطوفا على تلك الجملة الفاصلة للكاف ، فلا يجوز الوقف على : : كذلك ، حينئذ (١) .

وقال الألوسي : والمراد بالقوم الآخرين : بنو إسرائيل ، وهم مغايرون للقبيل جنسا ودينا . ويفسر ذلك قوله - تعالى - في سورة الشعراء : : كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، وهو ظاهر في أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ، بعد هلاك فرعون وملكوها .

وقيل : المراد بالقوم الآخرين غير بنى إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون ، لأنه لم يرد في شهور التواريخ أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ، ولا أنهم ملكوها قط .

وما في سورة الشعراء من باب قوله - تعالى - : : وما يضر من دمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، أو من باب : عندي درهم ونصفه . فليس المراد خصوص ما تركوه ، بل نوعه وما يشبهه .

وقيل : المراد من إرثها لإياهم : تمكينهم من التصرف فيها ، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر ، كما كانوا فيها أولا

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٥ ص ١٢٣ .

والذي نراه - كما سبق أن قلنا عند تفسير سورة الشعراء (١) - أن الآية صريحة في توريث بني إسرائيل للجنات والعيون ... التي خلفها فرعون وقومه بعد غرقهم ، بمعنى أنهم عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون ومن معه ، واسكن عودتهم كانت لفترة معينة ، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدسة التي دعاهم موسى - عليه السلام - لدخولها كما جاء في قوله - تعالى - : **فَإِذَا قُومُوا إِلَى الْأَرْضِ الْمَقْدُوسَةِ اتَّبَعْتُمُ اقْتِبَاءً مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَحْزَنْهُمْ حَزَنٌ** . ولا تردوا على أدياركم فتقلبوا خاطرين

ثم بين - سبحانه - أن فرعون وقومه بعد أن غرقوا ، لم يحزن لهلاكهم أحد ، فقال : **وَقَدْ نَكَّاهُ الْمَاءُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ** . .

أي : أن هؤلاء المغرقين ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، وكانوا يذلون غيرهم ، وكانوا يملكون الجنات والعيون ... هؤلاء الطغاة لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السموات أو أهل الأرض ، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر في الدنيا أو في الآخرة ، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويف

فالمقصود من الآية العكرية بيان هوان منزلة هؤلاء المغرقين ، وتفاهة شأنهم ، وعدم أسف أحد على غرقهم ، لأنهم كانوا بمقوتين من كل عاقل . . .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : كان العرب إذا مات فيهم رجل خطير قالوا في تعظيمه : **بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَبَكَتْ الرِّيحُ** ، وأظلمت له الشمس . . .

قال جرير في رثاء عمر بن العزيز :

نعمي النعاة أمير المؤمنين لشأنا ياخير من حج بيت الله واعتمرا

(١) راجع تفسيرنا لسورة الشعراء > ٣٣ .

حملت أمرا عظيما فاصطبرت له وقت فيه بأمر الله يا عمرا
 الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقدر
 وقالت ليلي بنت طريف الخارجية ، ترقى أخاها الوليد :
 أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
 وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء
 عليه ...

وفي الآية تهكم بهم وبمحالهم المنافية لحال من يعظم فقهه ، فيقال فيه :
 بكى عليه السماء والأرض ... يعنى : فبا بكى عليهم أهل السماء والأرض ،
 جل كانوا بهلا كهم مسرورين ... (١)

وقال الإمام ابن كثير : وقوله : فبا بكى عليهم السماء والأرض ...
 أى : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتسبكي على فقدم ، ولا لهم
 بقاع فى الأرض عبدوا الله فيها ففقدتهم فلم يذا استحقوا أن لا ينظروا
 ولا يؤخروا ...

أم ساق - رحمه الله - جملة من الأحاديث منها ما أخرجه ابن جرير عن
 شريح بن عبيد الحضرمي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن
 الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ، ألا غربة مؤمن ما مات مؤمن فى غربة
 فابت عنه فيها بواكيه . إلا بكى عليه السماء والأرض . ثم قرأ - صلى الله
 عليه وسلم - هذه الآية . ثم قال : إنما لا يبكيان على الكافرين ، (٢)

ثم بين - سبحانه - جانباً من نعمه على بنى إسرائيل فقال : ولقد نجينا
 بنى إسرائيل من العذاب المهين .

أى : والله لقد نجينا - بفضلنا ورحمتنا - بنى إسرائيل من العذاب المهين ،

(١) راجع تفسير الكشاف وحاشيته ج ٤ ص ٢٧٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٩ .

الذى كان ينزله بهم أعداؤهم ، كقتلهم للذكور ، واسبقاقتلهم للإناث . . .
وقوله : « من فرعون » بدل من العذاب على حذف المضاف ، والتقدير :
من عذاب فرعون . . . أو على المبالغة كأن فرعون نفس العذاب ، لإفراطه
في تعذيبهم وإهانتهم .

ثم بين - سبحانه - حال فرعون فقال : « إنه كان عاليا من المسرفين »
أى : نجيناهم من فرعون الذى كان متكبرا متجبرا . ومن المسرفين فى فعله
الشروع ، وفى ارتكاب القبائح . . .

ثم بين - سبحانه - جانب آخر من إكرامه لبنى إسرائيل فقال : « ولقد
اخترفناهم على علم على العالمين » .

والاختيار : الاصطفاء على سبيل التشريف والتكريم . أى ولقد اصطفينا
بنى إسرائيل على عالمى زمانهم ، ونحن عالمون بذلك علما اقتضته حكمتنا
ورحمتنا .

فقوله « على علم » فى موضع الحال من الفاعل . والمراد بالعالمين : أهل
زمانهم المعاصرين لهم ، بدليل قوله - تعالى - فى الآية الإسلامية : « كنتم خير
أخرجت للناس . . . » .

وهذا الاصطفاء والاختيار ، إنما مرده إلى من يعمل منهم عملا صالحا ،
أما الذين لم يعملوا ذلك فلا مزية لهم ولا فضل ، ولذا نجد كثيرا من الآيات تدم
من يستحق الذم منهم .

ومن ذلك قوله - تعالى - : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان
داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون
عن منكر فاعلوه ، لبس ما كانوا يفعلون » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض المعجزات التي جاءتهم على أيدي رسلهم فقال :

« وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ » .

أي : وأعطيناهم من المعجزات الدالة على صدق رسلهم كرمي وعيسى وغيرهما ، ما فيه بلاء مبين .

أي : ما فيه اختبار وامتحان ظاهر ، ليميز الخبيث من الطيب ، والكافر من المؤمن .

ومن هذه الآيات : فلق البحر بالنسبة لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص .. بالنسبة لعيسى .

ومن هذه الآيات الكريمة نرى جانباً من قصة موسى - عليه السلام - ، وكيف أنه بلغ رسالة ربه على أكمل وجه ، وسلك مع فرعون وقومه أحكم السبل في الدعوة إلى الحق ...

كما نرى فيها فضل الله - تعالى - على نبيه ، وعلى بني إسرائيل ، حيث نجاهم من ظلم فرعون وطفغياه ، وأهلكه ومن معه أمام أعينهم ، وأورثهم كنوز أعدائهم ...

ويعد هذا الحديث عن موسى - عليه السلام - وعن قومه ، وعن فرعون وشيعته ... بعد كل ذلك انتقلت السورة ، للحديث عن موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وردت عليهم بما يدل على إمكانية البعث وصحته . وأنه واقع لا محالة ، وبينت سوء عاقبة من ينسكرك ذلك ، ومن يصر على كفره وجحوده ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٢٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعْشَرِينَ (٢٥) فَأَتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٦) أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ

تُبْعِ ، الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَسْنَا أَكْثَرُمْ لَائِمَةً (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)
يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ
اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ
الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٢٦) خَذُوهُ
فَاغْتَلُّوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ السَّكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ
بِهِ تَعْتَدُونَ (٥٠) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : : إن هؤلاء ، يعود إلى مشركي
مكة ، الذين سبق الحديث عنهم في قوله - تعالى - : : بل هم في شك يلمعون .. إلخ .
وذكر سبحانه - قصة فرعون وقومه في الوسط ، للإشارة إلى التشابه بين
الفريقين في التكذيب للحق ، وفي الإصرار على الضلال .
وكانت الإشارة للقريب . لتحقيرهم والتهوين من شأنهم .

و : : إن ، في قوله - تعالى - : : إن هي إلا موتنا الأولى ... ، نافية . أي :
إن هؤلاء الكافرين ليقولون على سبيل الجزم والتكذيب للبعث : ما الموتة
التي نموتها في نهاية حياتنا الدنيوية ، إلا الموتة النهائية لا حياة بعدها ولا بعث
ولا نشور .

ومرادهم من الأولى : السابقة المتقدمة على الموعد الذي يوعدونه للبعث
والنشور .

قال بعض العلماء : وذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين
آخرين .

الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث ، أنبتوا الحالة الأولى وهى الموت ، ونفوا ما بعدها .

وسموا أولى مع أنهم اعتقدوا أنه لا شئ بعدها ، لأنهم نزلوا جحدم على الإنبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم ... ،^(١)

وقوله : : وما نحن بمنشرين ، تأكيد لما سبقه . أى : قالوا ليس هناك من موت سوى الموت المزيل لحياتنا ، ثم لا بعث ولا حساب ولا نشور بعد ذلك .

يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى نشورا ، إذا أحيام بعد موتهم ، فهم منشرون .

ثم بين - سبحانه - مطالبهم المتعنته ، وأدلتهم الباطلة فقال : فأتوا آبائنا إن كنتم صادقين . .

والقاء للأفصاح ، والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين الذين كانوا يؤمنون بالبعث .

أى : أن هؤلاء الكافرين قالوا - أيضا - للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين : إن كان الأمر كما تقولون من أن هناك بعثا وحسابا ... فأعيدوا الحياة إلى آبائنا الأولين ، واجعلوهم يخرجون إلينا مرة لنراهم .

وقوله - سبحانه - : : أم خير أم قوم تبع ... ، تهديد لهم على جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم .

والمراد بتبع : أبو كرب أسعد بن مليك ، ويسمى بتبع الحميرى . وهو أحد ملوك حمير .

وكان مؤمنا ، وقومه كانوا كافرين فأهلكهم الله . وإليه ينسب الانتصار ،

(١) راجع تفسير الكشاف وحاشيته ص ٢٧٩ .

ولفظه تبع ، يعتبر لقباً لكل ملك من ملوك اليمن ، كما أن لقب فرعون يعتبر ملكاً لمصر . . . (١) .

أى : إن هؤلاء الكافرين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - ليسوا خيراً من قوم تبع ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جماعاً ، فلما لجوا في ظلماتهم أهلكتهم الله - تعالى - وإن مصير هؤلاء المشركين - إذا ما استمروا في عنادهم - سيكون كصير قوم تبع . .

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين من التماذى في الضلال ، لأن هذا التماذى سيؤدى بهم إلى الخسران ، كما هو حال قوم تبع الذين لا يخفى أمرهم عليهم .

والمراد بمن قبلهم في قوله - تعالى - : « والذين من قبلكم أهلكتناهم » كانوا مجرمين ، : « الأقوام السابقون على قوم تبع ، كقوم عاد وثمود وغيرهم . أو على هؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - .
أى : والذين من قبل قوم تبع أو من قبل قومك من الظالمين ، أهلكتناهم لأنهم كانوا قوماً مجرمين .

ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى التفكر في خلق السموات والأرض فقال : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما . . ، من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - ما خلقنا ذلك ، لاعبين ، أى : عابثين أو لغرض غرض صحيح .
وقوله - تعالى - : « ما خلقناها إلا بالحق ، استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

أى : ما خلقناها إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، مؤيداً بالحكمة . .
« ولكن أكثرهم لا يعلمون ، ذلك ، لانطباع بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وسيحكم - سبحانه -
 في هذا اليوم بين الناس بحكمه العادل فقال : « إن يوم الفصل ، وهو يوم
 القيامة الذى يفصل فيه الله - عز وجل - بين الحق والمبطل ، وبين الممتدئ
 والفضال ... »

هذا اليوم « ميقاتهم أجمعين » ، أى : وقت اجتماعهم للحساب جميعاً دون أن
 يتخلف منهم أحد .

ثم وصف - سبحانه - هذا اليوم بقوله : « يوم لا يغنى مولى عن مولى
 شيئاً ولا هم ينصرون » .

وقوله : « يوم لا يغنى .. » بدل من يوم الفصل . والمولى : يطلق على
 القريب والصديق والناصر ..

أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الفصل ، لن يستطيع قريب أن ينفع قريبه ،
 أو صديق أن ينفع صديقه شيئاً من النفع ، ولا هم ينصرون من عذاب الله
 - تعالى - إذا ما أراد - سبحانه - أنزال عذابه بهم .

وقوله : « إلا من رحم الله .. » فى محل رفع على أنه بدل من ضمير
 « ينصرون » . أو فى محل نصب على الاستثناء منه أى : لا يستطيع صديق أن
 يدفع العذاب عن صديقه ، ولا قريب أن ينفع قريبه أو ينصره ، إلا من
 رحمه الله - تعالى - ، وذلك بأن يعفو - سبحانه - عنه ، أو يقبل شفاعته
 غيره فيه .

« إنه » - سبحانه - هو العزيز ، الذى لا يغلب « الرحيم » الذى وسعت
 رحمته كل شئ .

ثم بين - سبحانه - طعام أهل النار وحالهم يوم القيامة فقال : « إن شجرة
 الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم .. »

والمراد بشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله - تعالى - فى جهنم ،

وسماها الشجرة الملعونة ، ليكون طعام أهل النار منها .

ولفظ الزقوم : اسم لتلك الشجرة ، أو من الزقم بمعنى الانتقام والابتلاع للشئ .

والآثيم : الكثير الآثام والسيئات ، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله عليه .

والمهل : هو النحاس المذاب ، أو ردىء الزيت الحار .

أى : إن الشجرة الملعونة التى هى شجرة الزقوم ، خلقها الله - تعالى - لتسكون طعاما للانسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم .

فتنزل فى بطنه كما ينزل النحاس الحار المذاب ، فيغلى فيها كغلى الماء البالىغ .
نهاية الحرارة .

فقوله : د كفى الحميم ، نعت لمصدر محذوف . أى : غلياً كغلى الحميم .

وقوله - سبحانه - : د خذوه فاعتلوه إلى سواء الحميم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . . . ، مقول لقول محذوف ، هذا القول موجه من الله - تعالى - للملائكة العذاب .

وقوله - سبحانه - : د فاعتلوه ، من العتل وهو الاخذ بمجامع الشئ ، وجره بغلظة وقهر .

يقال : عتل فلان فلانا يعتله عتلا ، إذا جذبه جذبا شديدا ، وسار به إلى ما يكره السير إليه .

أى : يقول الله - تعالى - للملائكة العذاب فى هذا اليوم القسير : خذوا هذا الكافر الآثيم ، فجروه بغلظة ، وسوقوه بشدة د إلى سواء الحميم ، أى : إلى وسطها .

د ثم صبوا فوق رأسه ، على سبيل التشكيل به د من عذاب الحميم ، صبا يذله ويوجمه ويجعل رأسه تغلى من شدة حرارة هذا الماء .

ثم قولوا له بعد ذلك على سبيل التهكم به ، والتقرع به : د ذق ، أى : تذوق

شدة هذا العذاب . فالأمر للامانة .

« إنك ، كنت نزعاً في الدنيا ، بأفك ، أنت العزيز الكريم » .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بقوله : « إن هذا ما كنتم به تمترون ، أي : إن هذا العذاب الذي نزل بكم أيها الكافرون ، هو ما كنتم بشأنه تجادلون وتخاصمون في الدنيا ، فأنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك في صحته ..
فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فرق رهوسكم .

وهكذا نجد الآيات الكريمة ، قد وضحت أن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، وأن الكافرين به سيصيبهم عذاب شديد يذلمهم ويخزيهم .

• • •

وبعد هذا الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم ، ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّاهُمْ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩) » .

أي : إن الذين اتقوا الله - تعالى - ، وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سيكونون يوم القيامة « في مقام أمين » أي : في مكان يأمن معه صاحبه من كل خوف .

فالمراد بالمقام - بالفتح - موضع القيام ، أي : الثبات والملازمة . وقرأ

ابن عامر ونافع ، د مقام ، - بضم الميم - أى : موضع الإقامة . والمراد أنهم فى مكان أو مجلس لا خوف فيه ولا مكروه .

وقوله : د فى جنات وعيون ، بدل من د مقام أمين ، بإعادة حرف الحجر أى : هم فى مكان آمن ، تتوسطه وتحيط به البساتين الناضرة ، وعيون الماء المتفجرة ..

د يلبسون من سندس ، والسندس هو أجود أنواع الحرير وأرقه ، واحده سندسة .

د ولاستهرق ، وهو ما كان سميكا من الديباج والحرير .

د متقابلين ، أى : يجلسون فى مجالس متقابلة ، بحيث ينظر بعضهم إلى بعض .

د كذلك ، أى : الأمر كذلك . من أن المتقين لهم كل هذا النعيم .

د وزوجناهم بحور عين ، أى : وزوجناهم بنساء يحار الطرف فيهن بجمالهن وحسنهن ، والخور : جمع حورا .. وهى التى يحار الطرف فيها لفرط جمالها . والعين : جمع عينا . وهى التى اتسعت عينها فى حسن وجمال .

د يدعون فيها ، أى : فى الجنات ، بكل فاكهة آمنين ، أى : يطلبون ويأمرون غيرهم بأن يحضر لهم كل ما يشتهونه من فاكهة أو غيرها ، فيلبى طلبهم وهو آمنون فى أما كنهم من كل خوف أو ضرر .

ثم بين - سبحانه - أن بقاءهم فى تلك الجنات بقاء دائم فقال : لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ، ووقام عذاب الجحيم .

أى : هم باقون بقاء دائما فى تلك الجنات ، بحيث لا يموتون فيها أبدا ، إلا الموتة الاولى التى ذاقوها عند نهاية آجالهم فى الدنيا ، ووقام - سبحانه - بعدها عذاب الجحيم ، الذى حل بالكافرين .

قال الألوسى : قوله : د لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى .. جملة

مستأنفة أو حالية ، وكأنه أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع الموتة الاولى موضع ذلك ، لان الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال . كأنه قيل : إن كانت الموتة الاولى يسققيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها . ونظيره قول القائل لمن يستسقيه : إلا الحجر ، وقد علم أن الحجر لا يسقى .. ،^(١)

وقوله : فضلا من ربك .. ، أى : أعطواكل ذلك فضلا من ربك ، فقوله : فضلا ، منصوب على المصدرية بفعل محذوف . أو على أنه مفعول لأجله . أى : لأجل الفضل منه - سبحانه - .

ذلك ، الذى أعطيناهم إياه ، هو الفوز العظيم ، الذى لا يدانيه ولا يساميه فضل .

فإنما يسرناه بلسانك ، أى : فإنما أنزلنا عليك - يا محمد - هذا القرآن ، وجعلناه بلغتك ولغة قومك ، لعلمهم يتذكرون ، ما فيه من هدايات ، ويعتبرون بما اشتمل عليه من عبر وعظات ...

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بقوله : فارتقب لآلئهم مرتقبون ، .

أى : فعلنا ذلك لعلمهم يتذكرون ، فإن لم يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بما جئتهم به . فارتقب و انتظر ما يحل بهم من عذاب ، وما وعدناك به من النصر عليهم ، لأنهم - أيضا - منتظرون ومرتقبون ما يحل بك من موت أو غيره ...

ونحن بفضلنا ورحمتنا سنحقق لك ما وعدناك به ، وسنخيب ظنونهم وآمالهم .

وبعد هذا تفسير وسيط لسورة الدخان ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة : ٢ من ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

١٠ / ١١ / ١٩٨٥ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الجاثية

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

(الجزء الخامس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الجاثية ، هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف . وكان نزولها بعد سورة ، الدخان ، . وعدد آياتها سبع وثلاثون آية في المصحف الكوفي . وست وثلاثون في غيره ، لاختلافهم في قوله - تعالى - « حم ، ، هل هو آية مستقلة أو لا .

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بالثناء على القرآن الكريم ، وبدعوة الناس إلى التدبر والتأمل في هذا الكون العجيب ، وما اشتمل عليه من سموات وأرض ، ومن ليل ونهار ، ومن أمطار ورياح ... فإن هذا التأمل من شأنه أن يهدي إلى الحق ، وإلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً قادراً حكماً ، هو الله رب العالمين .

قال - تعالى - : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن في السموات والأرض لايات للموقنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون

٣ - ثم توعد - سبحانه - بعد ذلك الأفاكين بأشد أنواع العذاب ، لإصرارهم على كفرهم ، واتخاذهم آيات الله هزوا ..

قال - تعالى - : « ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ..

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان جانب من نعم الله - تعالى -
(١٢ - سورة الجاثية)

على خلقه ، تلك النعم التي تتمثل في البحر وما اشتمل عليه من خيرات ، وفي
السموات والأرض وما فيهما من منافع .

قال - سبحانه - : الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ،
ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في
الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

٥ - ثم بين - سبحانه - موقف بني إسرائيل من نعم الله - تعالى - ،
وكيف أنهم قابلوا ذلك بالاختلاف والبغى ، ونهى - سبحانه - نبيه - صلى الله
عليه وسلم - عن الاستماع إليهم ، وبين أنه لا يستوى عبده - عز وجل - الذين
اجترحوا السيئات ، والذين عملوا الصالحات . . .

فقال - تعالى - : : أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين
آمَنوا وعملوا الصالحات ، سواء بحياهم ومماتهم ما يحكمون . وخلق الله
السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . .

ثم حكى بعض الأقوال الباطلة التي تفوه بها الكافرون ، ورد عليها بما
يزهقها ويثبت كذبها ، قال - تعالى - : : وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت
ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإذا
تلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم
صادقين . قل الله يحميكم ، ثم يميكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ،
ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

٦ - ثم أخذت السورة السكرية في أواخرها ، في بيان أهوال يوم القيامة ،
وفي بيان عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار .

قال - تعالى - : فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته
ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا ، أأنف تمكن آياتي تتلى عليكم ،
فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين .

٧ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالشاء على ذاته بما هو أهله ، فقال - تعالى - : فله الحمد رب السموات ورب الأرض ، رب العالمين . وله السكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

هذا ، والمتدبر في هذه السورة الكريمة ، يراها تدعو الناس إلى التفكر فيها اشتمل عليه هذا الـكون من آيات دالة على وحدانية الله - تعالى - وكال قدرته ، كما أنه يراها تحكي بشيء من التفصيل أقوال المشركين وترد عليها ، وتبين سوء عاقبتهم ، كما يراها تسوق ألوانا من نعم الله على خلقه ، وتدعو المؤمنين إلى التمسك بكتاب ربهم ، وتبشرهم بأنهم متى فعلوا ذلك ظفروا برضوان الله تعالى وثوابه ..

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز المبين . كما يراها تهتم بتفصيل الحديث عن أهوال القيامة ، لكي ينفي الناس إلى رشد ، ويستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

قال - تعالى - : دوزي كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .

نسأل الله - تعالى - أن ينجينا من أهوال هذا اليوم ، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علما .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوي القاهرة - مدينة نصر -

صباح الأحد ١٤٠٦ / ٢ / ٤ هـ

١٧ / ١١ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « حم (١) نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْدُءُ مِنْ ذَابِقِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) » .

سورة : الجاثية ، من السورة التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن قلنا ، إن هذه الحروف الرأى الراجح في معناها ، أنها سبقت للتمنيبه على إعجاز القرآن ، وعلى أنه من عند الله - عز وجل -

وقوله - سبحانه - : « نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

أى : هذا القرآن من الله - تعالى - صاحب العزة التي لا عزة سواها ، وصاحب الحكمة التي لا تقاربها حكمة ، فهو - سبحانه - القاهر فوق عباده وهو الحكيم في كل تصرفاته .

ثم ساق - سبحانه - ستة أدلة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وجلال عظمته ويتمثل الدليل الأول في قوله - تعالى - : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى : إن في خلق هذه السموات المزينة بالمصابيح ، والتي لا ترى فيه من تفاوت ، والمرفوعة بغير عمد ... وفي خلق الأرض الممهدة المفروشة المثبته بالجبال ... في كل ذلك لبراهين ساطعة للمؤمنين ، على أن الخالق لهم هو الله - تعالى - وحده ، المستحق للعبادة والطاعة .

فالمراد بقوله - تعالى - : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... » أى : إن في

خلقهما ، كما صرح - سبحانه - بذلك في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - :
 إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى
 الألباب ، (١)

والمراد بالآيات : الدلائل والبراهين الدالة على قدرته - سبحانه -
 ووحدانيته .

والدليل الثاني والثالث قوله - تعالى - : وفي خلقكم وما يبث من دابة
 آيات لقوم يوقنون ،

قوله : د وفي خلقكم ، جار ومجرور خبر مقدم ، وقوله : آيات ،
 مبتدأ مؤخر .

أى : وفي خلقكم - أيها الناس - من نطفة ، فعلاقة : فضضة . . . إلى أن
 نخرجكم من بطون أمهاتكم . . . وفيه نبؤته ونشره وتوحيده من دواب لا تعد
 ولا تحصى على ظهر الأرض ،

في كل ذلك آيات ، بينات ، وعلامات واضحات ، على كمال قدرتنا ،
 لقوم يوقنون بأن القادر على هذا الخلق ، إنما هو الله - تعالى - وحده .

والدليل الرابع قوله - تعالى - : واختلاف الليل والنهار . . . والمراد
 باختلافهما : تفاوتهما طولاً وقصرًا ، وتعاقبهما دون أن يسبق أحدهما الآخر
 كما قال - تعالى - : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق
 النهار ، وكل في فلك يسبحون ، (٢)

وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذي لا يتخرم
 دليل على أن هذا الإخلاف ، تدبير من إله قادر حكيم ، لا يدخل أفهامه
 تفاوت أو اختلال .

(١) سورة آل عمران . الآية ١٩٠

(٢) سورة يس . الآية ٤٠

والدليل الخامس قوله - تعالى - : وما أنزل الله من السماء من رزق فأجث به الأرض بعد موتها ،

وقوله : وما أنزل ... ، معطوف على ، اختلاف ، ، والمراد من السماء . جهة العلو .

والمراد بالرزق : المطر الذي ينزل من السحاب ، وسمى رزقا لأن المطر سبب لأرزاق العباد .

أى : ومن الآيات الدالة على قدرته - سبحانه - : إنزاله المطر من السماء ، فينزل على الأرض ، فتتربو وتنبث من كل زوج بهيج ، بعد أن كانت جدباء هامدة .

وأما الدليل السادس فهو فى قوله - تعالى - : وتصريف الرياح ، : والمراد بتصريفها : تغليبها فى الجهات المختلفة ، ونقلها من حال إلى حال ، وتوجيهها على حسب مشيئته - سبحانه - ، فتارة تراها حارة ، وتارة تراها باردة . . .

أى : ومن الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، تغليبها - سبحانه - للرياح كما يشاء ويختار .

وفى ذلك الذى بيناه لكم آيات ، واضحات على قدرتنا ، اقوم يعقلون ، ذلك قال الجمل فى حاشيته : وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة ، على ثلاث فواصل : الأولى : للدومنين ، ، والثانية : يوقنون ، ، والثالثة : يعقلون ، . ووجه التغاير بينهما ، أن المنصف من نفسه إذا نظر فى السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمن . وإذا نظر خلق نفسه ونحوها ، ازداد إيمانا فأيقن . وإذا نظر فى سائر الحوادث عقل واستحكم عليه . فاختلاف الفواصل الثلاث ، لاختلاف الآيات فى الدقة والظهور ، (١) .

وما ذكر في هذه الآيات الكريمة من أدلة ساطعة على قدرة الله ووحدانيته جاء في آيات كثيرة، من أجمعها قوله - تعالى - : «لَمَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفَلَاقِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (١).

• • • • •

وبعد أن ذكر - سبحانه - هذه الأدلة الكونية الساطعة التي تحمل الناس على إخلاص العبادة له وحده، أتبع ذلك بتمديد الذين عموا عنها، والذين اتخذوا آيات الله هزوا ... فقال - تعالى - :

«تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ»، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ زُرَّتِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (١١) » .

والمراد بالآيات في قوله - سبحانه - : «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» ، آيات القرآن الكريم، كما في قوله - تعالى - : «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (٢).

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية في سورة البقرة ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٨

وذلك ، مبتدأ ، و آيات الله ، خبر و د نتلوها عليك ، حال عاملها
مادل عليه ، تلك ، من معنى الإشارة .

وقوله د بالحق ، حال من فاعل د نتلوها ، أو من مفعوله . أى : نتلوها
محقين ، أو ملتبسة بالحق .

أى : تلك - أيها الرسول الكريم - آيات الله - تعالى - المنزلة إليك ،
نتلوها عليك تلاوة ملتبسة بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

و كانت الإشارة للبعيد ، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات ، ولعلو
شأنها ، د كمال معانيها ، والوفاء فى مقاصدها .

وأضاف - سبحانه - الآيات إليه ، لأنه هو الذى أنزلها على نبيه - صلى الله
عليه وسلم - ، وفى هذه الإضافة ما فيها من التشريف لها ، والسمو بمنزلتها .

وجعل - سبحانه - تلاوة جهنم للقرآن تلاوة له ، للإشعار بشرف جهنم ،
وأنه ما خرج فى تلاوته عما أمره الله - تعالى - به ، فهو رسوله الأمين ، إلى
رسله المكرمين .

وقوله - سبحانه - : د فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ، تعجيب من
حالهم ، حيث أصر هؤلاء الكافرون على كفرهم ، مع وضوح البراهين والأدلة
على بطلان ذلك .

أى : فبأى حديث بعد آيات الله المتلوة عليك يؤمن هؤلاء الجاهلون ؟
لأن عدم إيمانهم بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسله ، دليل على انطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجحود
على قلوبهم .

قال الألوسى : وقوله : د فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ، هو من
باب قولهم : أعجبني زيد وكرهه ، يريدون أعجبني كرم زيد ، إلا أنهم عدلوا
هذه للمبالغة فى الإعجاب ،

أى : فبأى حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون . وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ، ولا آية أدل من هذه الآية ...

وقال الواحدى : فبأى حديث بعد حديث الله ، أى : القرآن . وقد جاء لإطلاقه عليه فى قوله - تعالى - : « الله نزل أحسن الحديث . . . » ، وحسن الإضمار لقريفة تقدم الحديث .

وقوله « وآياته » عطف عليه لتغايرهما إجمالاً وتفصيلاً ... والفاء فى جواب شرط مقدر . والظرف صفة حديث (١) .

ثم هدد - سبحانه - هؤلاء المشركين بقوله : « ويل لكل أفاك أثيم . » والويل : لفظ يدل على الشر أو الهلاك . وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، وقد يستعمل بدون حرف النداء كما هنا . وقد يستعمل معه كما فى قوله - تعالى - : « يا ويلتنا من بهتانا من قدامنا . »

والأفاك : هو الإنسان الكثير الإفك وهو أشنع الكذب وأفحجه .

والأثيم : هو الإنسان المرتكب للذنوب والآثام بقلبه وجوارحه ، فهو سىء الظاهر وسىء الباطن .

أى هلاك وعذاب وحسرة يوم القيامة لكل إنسان ينطق بأقبح الكاذب ويفعل أسوأ السيئات .

هذا الإنسان - أيضاً - من صفاته أنه « يسمع آيات الله تنلى عليه » صياح مساء .

ثم ، بعد ذلك ، يصر ، على كفره « مستكبراً ، أى : متكبراً عن الإيمان . » كان لم يسمعها ، أى : كأنه لم يسمع هذه الآيات ، لأنها لم توافق هواه أو شهواته . والتعبير بقوله : « ثم يصر مستكبراً . . » ، للتعجب من حاله ، حيث يصر على كفره ، بعد سماع ما يدعو إلى التخلي عن الكفر ، ويحمل على الدخول فى الإيمان .

والإصرار على الشيء : ملازمته ، وعدم الانفكاك عنه ، مأخوذ من
الصر - بفتح الصاد - وهو الشد . ومنه صرة الدرام ، لأنها مشدودة على
ما بداخلها ...

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى دثم ، في قوله : دثم بصير مستكبر ، ؟
قلت : كعناه في قول القائل : يرى غمرات الموت ثم يزورها :
وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائئها بنفسه ، ويطلب الفرار عنها .
وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها ، فأمر مستبعد . فغنى دثم :
الايدان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعانها ، شيء يستبعد في الغايات والطباع .
وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق ، من تليمت عليه وسمعها : كان
مسبعا في العقول لإصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان
بها ... (١)

وقوله - تعالى - : فبشره بعذاب أليم ، تهكم بهذا الألفك الأليم ...
واستهزاء به ، لأن البشارة في الأصل إنما تكون من أجل الخبر السار ، الذي
تسهل له البشارة .

أي فبشره بعذاب أليم ، بسبب إصراره على كفره ، واستحبابه العمى
على الهدى .

ثم بين - سبحانه - صفة أخرى من صفات هذا الألفك الأليم فقال :
« وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ... » .

أي : وإذا بلغ هذا الإنسان شيء من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ،
بادر إلى الاستهزاء بها والسخرية منها ، ولم يكثف بالاستهزاء بما سمعه ، بل
استهزأ بالآيات كلها ، لرسوخه في الكفر والجحود .

والتعبير بقوله : « وإذا علم ... » ، زيادة في تحقيره ونجهله ، لأن اتخاذ
الآيات هزوا بعد علمه بمصدرها ، يدل على إيقاله في العناد والضلال .

وقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » ، بيان لسوء عاقبته . أى : أولئك الذين يفعلون ذلك لهم فى الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجهلهم محل سخرية العقلاء واحتقارهم . « من ورائهم جهنم » ، أى : من قدامهم جهنم لأنهم متوجهون إليها بعد موتهم ، أو هى من خلفهم لأنهم معرضون عنها ، ومهملون لما بعدهم عن دخولها ...

والرواء : اسم يستعمل بمعنى الإمام والخلف ، لأنه يطلق على الجهة التى يوارىها الشخص ، فتعم الخلف والإمام .

« ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا » ، أى : ولا يدفع عنهم ما كسبوه فى الدنيا من أموال شيئا من العذاب ، ولو كان هذا الشيء يسيرا ، كما قال - تعالى - : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار » .

فقوله « ولا يغنى » من الغناء - بفتح الغير - بمعنى الدفع والنفق ، ومنه قول الشاعر :

وقل غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثا وواراك لاحد

« ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » ، أى : ولا يغنى عنهم - أيضا - ما اتخذوه من دون الله - تعالى - من معبودات باطلة .

ودما ، فى قوله « ما كسبوا » ، و « ما اتخذوا » ، موصولة والعائد محذوف . ويصح أن تكون فى الموضعين مصدرية .

« ولهم عذاب عظيم » ، لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله - تعالى - وحده . والإشارة فى قوله - تعالى - « هذا هدى » ، تعود إلى القرآن الكريم - والهدى مصدر هداه إلى الشيء - إذ أدله وأرشده إليه .

أى : هذا القرآن الذى أوحينا إليك يا محمد ، فى أعلى درجات الهداية وأكملها . « والذين كفروا بآيات ربهم » ، الدالة على وجوب إخلاص العباد له . « لهم عذاب من رجز أليم » ، والرجز : يطلق على أشد أنواع العذاب .

أى : لهم أشد أنواع العذاب ، وأكثره إبلا ما وإهانة .

وجهم-ور القراء قرأه أليم ، بالخفض على أنه نعت لقوله « رجز » وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « أليم » بالرفع ، على أنه صفة لعذاب .

وهذه الآيات تهديد لكل من كانت فيه هذه الصفات التى منها : كثرة الكذب ، وكثرة اقتراف السيئات ، والإصرار على الباطل ... وبدخل فى هذا التهديد دخول أولياءنا ، النضر بن الحارث ، الذى كان يشترى أحاديث الأعاجم ليشتغل بها الناس عن سماع القرآن ، والذى قبل إن هذه الآيات قد نزلت فيه

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد هذا التهديد الشديد للأفاكين ... إلى بيان جانب من النعم التى انعم بها - سبحانه - على عباده ، ودعت المؤمنين إلى الصبر والصفح ، فقال - تعالى - :

« اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ تَجْرَى الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَاءَ الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْنَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) » .

وقوله - تعالى - : « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتيسير . يقال : سخر الله - تعالى - الإبل للإنسان ، إذا ذلتها له ، وحملها منقادة لأمره .

أى : الله - تعالى - وحده ، هو الذى بقدرته ورحمته « سخر لكم البحر ،

بأن جعلكم متمكنين من الانتفاع بخيراتهم ، وبأن جعله على هذه الصفة التي تستطيعون معها استخراج ما فيه من خيرات .

وقوله : « لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ... » ، بيان لبعض الأسباب التي من أجلها جعل الله - تعالى - البحر على هذه الصفة .

أى : جعل لكم البحر على هذه الصفة ، لكي تتمكن السفن من الجرى فيه بأمره - تعالى - وقدرته ، ولتطلبوا ما فيه من خيرات ، تارة عن طريق استخراج ما فيه من كنوز ، وتارة عن طريق التجارة فيها ... وكل ذلك بتيسير الله - تعالى - وفضله ورحمته بكم

وقوله : « ولعلكم تشكرون ، متعلق بمحذوف . أى : أعطاكم ما أعطاكم من النعم ، وجعل البحر على صفة تتمكنون معها من الجرى فيه وأنتم في سفنكم ، ومن لاستخراج ما فيه من خيرات ... لعلكم بعد ذلك تشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، تستعملونها فيما خلقت من أجله .

وقوله - تعالى - : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ... » ، تعميم بعد تخصيص .

أى : يسر لكم الانتفاع بما فى البحر من خيرات ، ويسر لكم - أيضاً - الانتفاع بكل ما فى السموات والأرض من نعم لاتعد ولا تحصى ، وكلها منه - تعالى - وحده ، لا من أحد سواه .

فقوله : « جميعاً ، حال من « وما فى الأرض » ، أو تأكيد له . والضمير فى قوله - تعالى - « منه » ، يعود إلى الله - عز وجل - ، والجار المجرور حال من « ما » - أيضاً ، أى : جميعاً كائناتاً منه - تعالى - لا من غيره

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى « منه » فى قوله : « جميعاً منه » ؟ وما موقعها من الإعراب ؟

قلت : هي واقعة موقع الحال . والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده . يعنى أنه مكوّنها ووجددا بقدرته وحكمته ، ثم مسخرها لخلقها . ويجوز أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هي جميعا منه . (١) ، إن في ذلك ، المذكور من تسخير البحر وما في السموات والأرض لكم ، آيات ، ساطعات ، وعلامات واضحات ، ودلائل بينات ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وفضله لقوم يتفكرون ، في هذه النعم ، يحسنون شكرها .

وخص المتفكرين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما بين أيديهم من نعم ، إذ بالتفكير السليم ينتقل العاقل من مرحلة الظن ، إلى مرحلة اليقين ، التي يحزم معها بأن المستحق للعبادة والحمد ، إنما هو الله رب العالمين .

ثم أمر الله - تعالى - أنبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يحض المؤمنين على التجاوز والصفح ، عما يصدر من المشركين من كلمات بذئنة ، ومن أفعال قبيحة ، حتى يأتي الله بأمره . . . فقال - تعالى - : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله . . . »

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنها نزلت في عمر بن الخطاب ، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهم أن يبطش به ، فنزلت . . . (٢)

ومقول القول محذوف لأن الجواب دال عليه . والرجاء هنا : بمعنى الخوف . والمراد بأيام الله : وقائمه بأعدائه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لا تباعك المؤمنين ، على سبيل النصح والإرشاد ، قل لهم : اغفروا للغفروا للمشركين الذين لا يخافون من وقائع الله

(١) تفسير الكشاف ٣ : ٤ ص ٢٨٨

(٢) راجع تفسير الألوسي ٣ : ٢٥ ص ١٤٦

ونقمه بأعدائه ، ولا يتوقعون أن هناك عذابا شديدا سينتظروهم ، وأن هناك ثوابا عظيما سيفتظر المؤمنون

فآلاية الكريمة توجيه حكيم للمؤمنين إلى التسامح والصبر على كيد أعدائهم ، حتى يأتي الله - تعالى - بأمره ، الذي فيه النصر للمؤمنين ، والخسران للكافرين .

وقوله - سبحانه - : « ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » ، علة للأمر بالصبر والمغفرة ، وهو متعلق بما قبله ، والمراد بالقوم : المؤمنون الذين أمروا بالتسامح والعفو . . . والتذكير في لفظ « قومه » ، للتعظيم .

أى : أمر الله المؤمنين بذلك ، ليجزيهم يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الصالحة ، التي منها الصبر على أذى أعدائهم ، والإغضاء عنهم ، وإحتمال المكروه منهم .

قال صاحب الكشف : قوله : « ليجزى قوما . . » ، تعليل للأمر بالمغفرة أى إنما أمروا بأن يغفروا ، لما أَرَادَهُ اللهُ من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة .

فإن قلت : قوله : « قوما » ، ما وجه تنكيهه ، وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف ؟

قلت : هو مدح لهم وثناء عليهم . كأنه قيل : ليجزى إيمانهم قوم . أو قوما مخصوصين ، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا يجرونهم من الغصص ، (١)

ثم عقب - سبحانه - على ذلك بما يؤكده عداله الجزاء ، واحتمال كل نفس لما تعمله فقال : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها . . . »

أى : من عمل عملا صالحا ، فتواب هذا العمل يعود إلى نفسه ، ومن عمل

عملا سيئا فمقاب هذا العمل يعود عليها - أيضا -

ثم إلى ربكم ترجعون ، يوم القيامة فترون ذلك رأى العين ، وتشاهدون أن كل إنسان سوف يجازى على حسب عمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعم الله - تعالى - على بني إسرائيل ، وعن موقعهم منها ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتمسك بالشرعية التي أنزلها الله - تعالى - عليه . . . فقال

« وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ يَنِينَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَآخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) »

والمراد بإسرائيل : يعقوب - عليه السلام ، وبينية : ذريته من بعده .
والمراد بالكتاب : التوراة . أو جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل والزبور .

أى : والله لقد أعطينا بني إسرائيل الكتاب ، ليكون هداية لهم ، وآتيناهم - أيضا - الحكم ، أى : الفقه والفهم الأحكام حتى يتمكنوا من القضاء بين الناس ، وأعطيناهم كذلك النبوة ، بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء فيهم ومنهم .

وهكذا منحهم - سبحانه - نعماء عظيمة تتعلق بدينهم ، أما النعم التي تتعلق بدينهم فقد بينها - سبحانه - في قوله : « ورزقناهم من الطيبات ، أي : ورزقناهم من المطاعم والمشارب الطيبات التي جعلناها حلالا لهم :

وقوله : « وفضلناهم على العالمين » بيان لنعمة أخرى . وللمفسرين في معنى هذه الجملة اتجاهان : أحدهما : أن المقصود بها فضلناهم على العالمين بأمرهم عينه حيث جعلنا عددا من الأنبياء منهم ، وأزلنا المن والسلوى عليهم .

قال الألوسي : قوله : « وفضلناهم على العالمين » ، حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق البحر ، وإزالة الغمام ، ونظائرهما ، فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا من بعض الوجوه ، لا من كلها ، ولا من جهة المرتبة والثواب . فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - عليهم من وجه آخر ، ومن جهة المرتبة والثواب ... » (١)

والثاني : أن المقصود بها : فضلناهم على عالمي زمانهم ...

قال الإمام الرزاي ، ما ملخصه : فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين ، يقتضي تفضيلهم على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهذا باطل ، فكيف الجواب ؟

قلنا : الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلناهم على عالمي زمانهم ، وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود ، لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تكن موجودة في ذلك الوقت ، فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت ، أنهم أفضل من الأمة الإسلامية ... » (٢)

(١) تفسير الألوسي ج ٢٥ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٣٥٥ .

وقال الشيخ الشنقة طيوطى ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وفضلناهم على العالمين » .

ذكر - سبحانه - في هذه الآية أنه فضل بنى إسرائيل على العالمين ، كما ذكر ذلك في آيات أخرى ... ولما كان الله - تعالى - بين أن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - خير من بنى إسرائيل ، وأكرم على الله ، كما صرح بذلك في قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ،

فخير صيغة تفضيل ، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم بنى إسرائيل وغيرهم .

ويؤيد ذلك من حديث معاوية بن حيدة القشيري ، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال في أمته : أنتم توفون سبعين أمة . أتم خيرها وأكرمها على الله ، وقد راه عند الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وإسحاق وهو حديث مشهور ...

واعلم أن ما ذكرنا من كون الأمة الإسلامية أفضل من بنى إسرائيل وغيرهم ، لا يعارض ما ورد من آيات في تفضيل بنى إسرائيل .

لأن ذلك التفضيل الوارد في بنى إسرائيل ، ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل على غيره ، أو يفضل غيره عليه .

ولكنه - تعالى - بعد وجود الأمة الإسلامية صرح بأنها خير الأمم . فثبت أن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بنى إسرائيل ، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة ... (١) .

وهذا الاتجاه الثانى هو الذى نرجحه ، لأن المقصود بالآية الكريمة وأمثالها ، تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - بنعم الله عليهم وعلى آبائهم ، حتى يشكروه عليها .

ومن مظاهر هذا الشكر - بل على رأسه - إيمانهم بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ...

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا تلك النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - على ما آناه الله - تعالى - من فضله ، فكانت نتيجة ذلك أن لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ...

ولقد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - في سورة البقرة : « وأنى فضلتمكم على العالمين » .

« والعبرة التي تستخلصها من هذه الآية وأمثالها : أن الله - تعالى - فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية ، ومنحهم الكثير من النعم ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر ... فسلب الله عنهم ما حباهم به من نعم . ووصفهم في كتابه بنقض العهد ، وقسوة القلب ...

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله بكفرا ، لأن الميزان عند الله للتعقوى والعمل الصالح . وليس للجنس أو اللون أو النسب » (١) .

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل فقال : « وآتيناهم بينات من الأمر ... » والبيانات جمع بينة ، وهي الدليل الواضح الصريح - ومن ، بمعنى في .

أي : وأعطيناهم - فضلا عن كل ما سبق - دلائل واضحة ، وشرائع بينة تتعلق بأمر دينهم ، بأن فصلنا لهم الحلال والحرام ، والجسنة والقيح ، والحق والباطل ، فصاروا بذلك على علم تام بشريعتهم ، بحيث لا يخفى عليهم شيء . مما اشتملت عليه من أوامر أو نواهي ، أو حلال أو حرام ...

فالمقصود من هذه الجملة السكينة أن الله - تعالى - قد أعطاهم شريعة واضحة لا غموض فيها ولا التباس ، ولا عوج فيها ولا انحراف .

بل إن شريعتهم قد أخبرتهم عن طريق رسالهم بمبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - . وبوجوب إيمانهم به عند ظهوره ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ؛ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » (١) .

ثم بين - سبحانه - الموقف القبيح الذي وقفه بنوا إسرائيل من نعم الله عليهم فقال : فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم

والبغي : تجاوز الحق إلى الباطل في كل شيء . يقال بغت المرأة إذا أتت ما لا يحل لها ، وبغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه ، ومنه قوله - تعالى - : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله » . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات ، وقوله « بغيا » مفعول لأجله .

أى : أن بنى إسرائيل أنعمنا عليهم بتلك النعم الدينية والديونية ، فما اختلفوا في أمور دينهم التي وضعتها لهم ، إلا عن علم لا عن جهل ، ولم يكن خلافتهم في حال من الأحوال إلا من أجل البغي والحسد فيما بينهم ، لا من أجل الوصول إلى الحق .

فأنت ترى أن الجملة السكينة توبخ بنى إسرائيل توبيخا شديدا ، لأنها بينت أن خلافتهم لم يكن عن جهل ؛ وإنما كان عن علم ، ولم يخالفتهم بعد العلم بالحق أقبح وأشنع ، وأن خلافتهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان سببه البغي والحسد

فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم به ، لأن العلم كالمطر ، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية . . . والنفوس عندما يستولى عليها الهوى ، تحول مقتضى إلى مانع .

ورحم الله الإمام الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والمقصود من هذه الجملة ، التعجب من أحوالهم ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وها هنا صار يحىء العلم سببا لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغى . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة . . . » ببيان لحكم الله العادل فيهم .

أى : « إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بقضائه العادل ، بأن ينزل بهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين ، الذى جعل الله أحكامه واضحة لهم ، ولا تحتل الاختلاف أو التنازع .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتمسك بالدين الذى أوحاه إليه ، فقال : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها . . . » .
والشريعة فى الأصل تطلق على المياه والأنهار التى يقصدها الناس للشرب منها ، والمراد بها هنا : الدين والملة ، لأن الناس يأخذون منها ما نحيها به أو واحهم ، كما يأخذون من المياه والأنهار ما نحيها به أبدانهم .

قال القرطبي : الشريعة فى اللغة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة المساء - وهى مورد الشاربة - شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد .

فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، والجمع الشرائع . والشرائع في الدين المذاهب التي شرعها الله - تعالى - لحلقه ، (١) .

أى : ثم جعلناك - أيها الرسول الكريم - على شريعة ثابتة ، وسنة قديمة ، وطريقة حميدة ، من أمر الدين الذي أوحيناها إليك ، فاتبعها ، اتباعاً تاماً لا انحراف عنه ، ولا تقبض أهواء الذين لا يعلمون ، من أهل الكفر والضلال والجهل ...

وقد ذكروا أن كفار قريش قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - ارجع إلى دين آبائك ، فإنهم كانوا أفضل منك ، فنزلت هذه الآية .

وقوله - سبحانه - : « إنهم إن يغفوك من الله سيئاتهم » ، تعليل للنهي عن اتباع أهوائهم ...

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين ، صرت مستحقاً لمؤاخذتنا ، ولن يستطيع هؤلاء أو غيرهم ، أن يدفع عنك شيئاً مما أراه الله - تعالى - بك ...

« وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض أى : بعضهم نصراء بعض في الدنيا ، أما في الآخرة فولايتهم تنقلب إلى عداوة .

« والله » - تعالى - هو « ولى المتقين ، الذين أنت إمامهم وقدرتهم ، فأثبت على شريعتنا التي أوحيناها إليك ، لتتال ما أنت أهله من رضانا ومطاعتنا ...

ثم أثنى - سبحانه - على القرآن الكريم الذي أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

والبصائر : جمع بصيرة . وهى للقلب بمنزلة البصر للعين . فهى النور

الذى يبصر به القلب هدايته ، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين طريقها .

وقوله : : هذا ، متدا . وبصائر خبره . وجمع الخبر باعتبار ما فى القرآن من تعدد الآيات والبراهين .

أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك - أيها الرسول الكريم - : بصائر للناس ، لأن ما فيه من حجج وبراهين ، تكشف للقلب طريق الحق ، كما تكشف العين للإنسان مساره وهو - أيضا - هدى ، أى : هداية عظيمة إلى الرشاد والسعادة «ورحمة» واسعة «لقوم يوقنون» أى : لقوم من شأنهم الإيقان بأنه من عند الله - تعالى - ، وبأنك - أيها الرسول الكريم - صادق فيما تبلغه عن ربك .

وخص الموقنين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بحجج القرآن الكريم ، وهداياته ، أما الذين فى قلوبهم مرض أو شك ، فإنهم لا ينتفعون بذلك .

قال - تعالى - : وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أياكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون «(١)» .

وقال - سبحانه - : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمية ، أولئك ينادون من مكان بعيد » (٢) .

• • •

(١) سورة التوبة الآية ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) سورة فصلت الآية ٢٤

ثم فرقت السورة الكريمة بين حال الذين يجترحون السيئات . وحال الذين يعملون الصالحات ، وحكت جانباً من أقوال المشركين . وردت عليهم بما يبطلها . فقال - تعالى - :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَنَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاءً ، فَمَنْ تَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تَنَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) » .

« وأم ، في قوله - تعالى - : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ . . . » منقطعة ، « وتقدر بيل والهمزة ، وما فيها من معنى بل اللاتصال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحساب .

والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتب بها كلاً يدي . ويقال : فلان جارحة أهله ، أى : هو الذي يكتب لهم أرزاقهم وحسب فعل ماض ، والذين فاعله ، وجملة « أن نجعلهم . . . » سادة مسدد المفعولين .

والمعنى بل أحسب الذين اكتسبوا ما يسوء من الكفر والمعاصي ، أن نجعلهم متساوين مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دار الدنيا أو في الدار الآخرة ؟

كلا لا يستوون فيهما ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ينجون في الدنيا حياة طيبة لا مكان فيها للهموم والاحقاد والإحن ببركة إيمانهم ، وفي الآخرة ينالون رضا الله - تعالى - وحسن ثوابه ...

أما الذين اجتروا السيئات فهم في شقاء الدنيا وفي الآخرة .
قال الشوكاني : قرأ الجمهور « سواء » بالرفع على أنه خبر مقدم . والمبتدأ عيالم وعاتم . والمعنى إنكار حسابهم أن عيالم وعاتم سواء .
وقرأ حمزة والكسائي وحفص « سواء » بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله : « كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أو على أنه مفعول ثان لحسب ... » (١) .

وقوله : « سواء ما يحكمون ، أي بش حكما حكمهم هذا الذي زعموا فيه تسويتنا بين الذين اجتروا السيئات ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات .
فالقصود بهذه الجملة الكريمة ، توبيخهم على أحكامهم الباطلة ، وأحكامهم الفاسدة .

قال الألوسي : قوله : « سواء ما يحكمون ، أي : سواء حكمهم هذا ، وهو الحكم بالتساوي ، فامصدرية ، والكلام لإخبار عن قبح حكمهم الممهور .
ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على « سواء » بمعنى بش ، « فإ » فيه نكرة موصوفة ، وقعت تمييزاً مفسراً للضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أي : بش شيئاً حكموا به ذلك » (٢) .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٨ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٥ ص ١٥١ .

ثم أكد - سبحانه - عدم المساواة بين الفريقين فقال: «وخلق الله السموات والأرض بالحق...» أى خلقهما خلقاً ملتبساً بالحق الذى لا يحوم حوله باطل... .

وقوله «ولتجزى كل نفس بما كسبت...» معطوف على مقدر يفهم من سياق الكلام... .

أى: خلقهما بالحق ليرهن بذلك على وحدانيته وقدرته «ولتجزى كل نفس يوم القيامة بسبب ما اكتسبته من أعمال».

ويصح أن يكون معطوفاً على قوله «بالحق»، أى: خلقهما بالحق المقتضى للعادل بين العباد، ولتجزى كل نفس بما كسبت، فهو من عطف السبب على السبب.

«وهم لا يظلمون» أى: الخلائق المدلول عليهم بقوله «كل نفس» لا يلحقهم شئ من الظلم يوم القيامة، لأن الله - تعالى - قد كتب على نفسه أنه «لا يظلم أحداً».

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه...» للتعجب من حال هؤلاء المشركين، ولتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى.

والمراد بهواه : ما يستحسنه من تصرفات ، حو ولو كانت تلك التصرفات فى نهاية القبح والشناعة والجهالة .

والمعنى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جمالة كجمالاتهم . لأنهم إذا حسن لهم هوام شينا اتخذوه إلهاً لهم ، مهما كان قبح تصرفهم ، وانحطاط تفكيرهم ، وخضوعه كماله يخضع العابد لمعبوده .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ،

فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول .

وقوله : « وأضل الله على علم » أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، بأن خلق فيه الضلالة ، على علم منه - سبحانه - بأن هذا الشقى أهل لذلك . لاستحقاقه العمدى على الهدى .

فيكون قوله « على علم » ، حال من الفاعل . أى أضلّه - سبحانه - حالة كونه عالماً بأنه من أهل الضلال .

وبصح أن يكون حالاً من المفعول ، أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى . والحال أن هذا الشقى عالم بطريق الإيمان ، ولكنه استحب الفى على الرشد .

وقوله : « وختم على سمعه وقلبه » ، والختم : الوسم بطابع ونحوه . مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء ، وطبعه فيه للاستيثاق ، لكي لا يخرج منه ما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه .

أى : وطبع على سمعه وقلبه ، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع ، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده .

« وجعل على بصره غشاوة » ، أى : وجعل على بصره غطاء ، يحجب عنه الرؤية السليمة للأشياء ، وأصل الغشاوة ما يغطى به الشيء ، من غشام إذا غطاه . . .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « فمن يهديه من بعد الله . . . » ، للاستفهام والتنفى .

أى : لا أحد يستطيع أن يهdy هذا الإنسان الذى اتخذ إلهه هواه . . . من بعد أن أضلّه الله - عز وجل - .

« أفلا تدكرون » ، أى : أفلا تتفكرون وتأملون فيما سقت لكم من مواظ وعبر ، تفكر ايهديكم إلى الرشد ، ويممكم على الإيمان .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين ، وتعجيب من أحوالهم التي بلغت الغاية في الجهالة والضلالة ، ودعوة لهم إلى التذكر والاعتبار ، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانباً من أحوالهم الهائلة فقال : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ... » .

أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الجهل والعناد والجحود للحق ، ما الحياة إلا هذه الحياة الدنيوية التي نحياها فيها ، وإيس هناك حياة - سواها ، فنحن نموت ثم نحيا أولادنا من بعدنا أو يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر إلى زمن معين ، أو نكون أمواتاً في أصلاب آبائنا ، ثم نحيا بعد ذلك عند الولادة ...

« وما يهلكنا ، عند انتهاء آجالنا ، إلا الدهر ، أى : إلا مرور الزمان ، وكرر الأعوام وتقلب الشهور والأيام . »

قال ابن كثير ما ملخصه : يخبر - تعالى - عن قول الدهرية من الكفار ، ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، ... ، أى : ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ... »

ولهذا قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر ، - أى : إلا مرور الأيام والليالى - فكابرُوا المعقول وكذبُوا المنقول .. »

وفى الحديث الصحيح - الذى رواه الشيخان وغيرهما - عن أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يقول الله - تعالى - : يؤذنى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب ليله ونهاره ، .

والمقصود من هذا الحديث النهى عن سب الدهر ، لأن الله - تعالى -

هو الخالق له ، فمن يسب الدهر ، فكأنما سب الله - تعالى - ، لأنه - سبحانه - هو الذي يقلب الليالي والأيام ...

وقد كان العرب في الجاهلية إذا ما أصابتهم شدة أو تمكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر ، فيستندون تلك الأفعال والمصائب إلى الدهر ويسبونه ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، رد عليهم فيما قالوه من أقوال باطلة تتعلق بإنكارهم للبعث والحساب .

أى : وليس لهم فيما زعموه من إنكارهم للبعث من علم مستند إلى نقل أو عقل ، إن هم إلا يظنون ظنا مذهبيا على الوهم والضلال .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات » أى : وإذا تليت عليهم آيات القرآن ؛ الواضحة في دلالتها على أن يوم القيامة حق ، وأن الحساب حق ...

« ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين » أى : ما كان ردهم على من يذكرهم بالبعث إلا أن قالوا لهم : أعيذوا إلينا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين في قولكم : إن هناك بعثا وحسابا ونوابا وعقابا .

وقوله « حجتهم » - بالنصب - خبر كان ، واسمها قوله : « إلا أن قالوا » . وسمى - سبحانه - أقوالهم مع بطلانها حجة ، على سبيل التهمك بهم ، والاستهزاء بهذه الأقوال .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم سمي قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهمك ، أولأنه في حسابهم وتقديرهم حجة ، أو لأنه في أسلوب قول القائل :

تحية بينهم ضرب وجيع ... كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ،

والمراد : نفي أن تكون لهم حجة البتة (١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : « قل الله يحييكم ، أي : وأتم في الدنيا ، ثم يميتكم ، عند انقضاء آجالكم في الدنيا ، ثم يجمعكم ، إلى يوم القيامة بأن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء . وهذا اليوم وهو يوم القيامة أت ، لا ريب فيه ، ولا شك في حدوثه .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ذلك ، لاستيلاء الهوى والشیطان على قلوبهم ، ولو عقلوا لعلوا أن من أنشأ الإنسان من العدم ، قادر على إعادته بعد موته من باب أولى .

• • •

ثم أخذت السورة الكريمة في أوآخرها في تدكير الناس بأحوال يوم القيامة لكي يستعدوا للقاء هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح ، فدكرتهم بأحوال الاختيار والاشرار في هذا اليوم العصيب ، وبيت لهم أن الندم لن ينفع في هذا اليوم ... فقال - تعالى - :

« وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْذِرُ مَنْ خَسِرَ الْبَطْلُونَ (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا

الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَلَمَّا كَبُرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ (٢١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ، قَالَتْ
مَا نَذَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ (٢٢) وَبَدَأَ لَهُمْ
سِبْطَاتُ مَا عَمِلُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ
نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ
نَّاصِرِينَ (٢٤) ذَلِكُمْ بَأْسُكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَعَزَّتْكُمْ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٢٥) فَاللَّهُ الْحَمْدُ رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

قال الإمام الرازي : قوله : : والله ملك السموات والأرض . . . :
أنه - تعالى - لما احتج بكونه قادرا على الإحياء في المرة الأولى ، وعلى كونه
قادرا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة ، عمم بعد ذلك الدليل
فقال : : والله ملك السموات والأرض ، أي : الله - تعالى - القدرة على جميع
الممكنات سواء أكانت من السموات أم من الأرض . . . (١) .

أي : : والله ، - تعالى - وحده د ملك السموات والأرض ، خلقا وتصرفا
وإحياء وإماتة لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين يوم القيامة فقال : : ويوم تقوم
تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، .

أي : والله - تعالى - ملك السموات والأرض ، وله - أيضا - ملك وقت

قيام الساعة ، لأنه لا يستطيع أحد أن يعلم وقت وقت قيامها ، أو يتصرف فيه ، إلا هو - عز وجل - وفي اليوم الذي تقوم فيه الساعة يخسر المبطلون ، أنفسهم وأهليهم ، ويصيرون في حال شديدة من الهم والغم والكرب ، لأنهم كذبوا بهذا اليوم ، وكفروا به وقالوا : دماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر

قال الشوكاني وقوله : «يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، أى : المكذبون الكافرون المطلقون بالباطل . يظهر في ذلك اليوم خسراتهم لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في «يوم» هو الفعل «يخسر» . ويومئذ بدل منه ، والتنوين للمعرض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه . فيكون التقدير : «يوم تقوم الساعة» ، يوم تقوم الساعة . فيكون بدلا توكيديا .

والأحسن أن يكون العامل في «يوم» هو «ملك» - أى : ما يدل عليه هذا اللفظ .

أى : «الله تعالى - ملك السموات والأرض - وملك يوم تقوم الساعة» ، ويكون قوله «يومئذ» معمولا ليخسر (١)

وشبه هذه الآية قوله تعالى : «فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون» (٢) .

ثم يعرض - سبحانه - مشهدا من مشاهد هذا اليوم الهائل الشديد فيقول : «وترى كل أمة جاثية»

وقوله : «سبحانه» : «جاثية» من الجثو وهو الجلوس على الركب بتحفظ وترقب وخوف . .

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ١٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٧٨ .

يقال : جثا فلان على ركبتيه يمشو جثوا وجثيا ، إذا بركب على ركبتيه وأنا مله في حالة توفز ، كأنه منتظر لما يكرمه .

أى : ونرى - أيها العاقل - في هذا اليوم الذى نصيب من هوله الولدان ، كل أمة من الأمم متميزة عن غيرها ، وجائية على ركبها ، مترقبة لمصيرها في تلهف وخوف فابلجلة الكريمة تصور أهوالك هذا اليوم ، وأحوال الناس فيه ، تصورا بليغا مؤثرا ، يبعث على الخوف الشديد من هذا اليوم ، وعلى تقديم العمل الصالح الذى ينفع صاحبه يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . والامر يومئذ . . .

وقوله : كل أمة ، مبتدا ، وقوله : ندعى إلى كتابها ، خبره . أى : كل أمة ندعى إلى سجل أعمالها الذى أمر الله تعالى - ملائكته بكتابته ، لحاسب عليه وقوله : : اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، مقرر لقول مقدر . أى : ويقال لهم جميعا في هذا الوقت : اليوم تجدون جزاء أعمالكم التى كنتم تعملونها في الدنيا من خير أو شر . ويقال لهم - أيضا - : : هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . . .

أى : هذا كتابنا الذى سجلته عليكم الملائكة ، يشهد عليكم بالحق ، لأنه لا زيادة فيما كتب عليكم ولا نقصان ، وإنما هى أعمالكم أحصيناها عليكم .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : : هذا كتابنا ، قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة .

و ينطبق عليكم بالحق ، أى : يشهد . وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا ، أى : بين . وقيل : لأنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم .

دليله قوله - تعالى - : : ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يفادر صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها ، وقوله - سبحانه - : ، ولدينا كتاب ينطق بالحق
وهم لا يظلمون ، .

وقوله : ، ينطق ، في موضع الحال من الكتاب .. ، (١) .

وقال الجبل في حاشيته : فإن قيل : كيف أضيف الكتاب إليهم في قوله :
كل أمة تدعى إلى كتابها ،

وأضيف هنا إلى الله - تعالى - فقال : ، هذا كتابنا ، ؟

فالجواب أنه لا منافاة بين الأمرين ، لأن كتابهم بمعنى أنه مشتمل على
أعمالهم ، وكتاب الله ، بمعنى أنه - سبحانه - هو الذي أمر الملائكة بكتابته ، (١)
وقوله - سبحانه - : ، إنا كنا نستنتج ما كنتم تعملون ، تعليل للنطق
بالحق أي : إنا كنا نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالكم ، أي : بكتابتها وتثبيتها
عليكم في الصحف ، حسنة كانت أو سيئة ، فالمراد بالنسخ هنا : الإثبات
لا الإزالة .

ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على ما سبق من أحكام فقال : ، فأما الذين
آمَنُوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته . . . ، أي : فيدخلهم
- سبحانه - في جنته ورضوانه .

، ذلك ، العطاء الجزيل ، هو الفوز المبين ، الذي لا يدانيه فوز .

، وأما الذين كفروا ، فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع والزجر .

، أفلم تكن آياتي تتلى عليكم . . ، أي : أفلم تأتكم رسلي بآياتي الدالة على
وحدانيتي وعلى صدقهم فيما يبلغونه عنى ؟ بلى لقد جاءكم رسلي بآياتي .

، فاستكبرتم ، عن الاستماع إليهم ، وعن الاستجابة لهم ، واتباع دعوتهم

(١) تفسير القرطبي ١٦ ص ١٧٤

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ٤ ص ١٢٠

«وكنتم قوما مجرمين ، أى : وكنتم فى الدنيا قوما عادتكم الإجرام ، واجتراح السيئات ، واقتراف المنكرات .

«ولإذ قيل ، لكم فى الدنيا ، إن وعد الله حق ، أى : إن ما وعد الله - تعالى - به من البعث والحساب حق وصدق ، والساعة لا ريب فيها ، أى : لا شك فيها .

«قلتم . على سبيل العناد والجحود ، ما ندرى ما الساعة ، أى : قلتم على سبيل الإنكار لها ، والاستبعاد لحصولها : لا نعرف أن هناك شيئا اسمه الساعة ، ولا نعترف بها اعترافا يدل على إيماننا بها .

«إن نظان لإظنا وما نحن بمستيقنين ، أى : كنتم فى الدنيا تقولون ، لا نؤمن ولا نؤمن بحدوث الساعة ، ولكننا نظن ونوهم أن هناك شيئا اسمه الساعة ، وما نحن بمستيقنين بإيمانها .

ولعل هذا الكلام الذى حكاه القرآن الكريم عنهم ، هو كلام الفاسكين المتحيرين من الكافرين أما الجاحدون منهم فهم الذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : «ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذه الأقوال الباطلة من نتائج فقال : «وبدأهم سيئات ما عملوا . . . ، أى : وظهر لهؤلاء الكافرين سيئات أعمالهم من حقيقة التى كانوا لا يتوقعونها . . .

«وحاق بهم ، أى : وأحاط ونزل بهم ، ما كانوا به يستهزئون ، أى : فى الدنيا ، فقد كانوا فى الدنيا ينكرون البعث والحساب والجزاء ويستهزئون بمن يحدثهم عن ذلك ، فزل بهم العذاب المهيئ ، جزاء استهزائهم وإنكارهم .

«وقيل ، لهم على سبيل التأنيب والزجر ، اليوم ننساكم ، أى : نهملكم ونترككم فى النار ، كما نسيتم ، أنتم فى الدنيا وأنكرتم ، لقاء يومكم هذا ، وهو يوم القيامة ، وماوكم النار ، أى : ومسكنكم الذى تؤتون إليه النار ، وبئس القرار .

« وما لكم من ناصرين ، أى : وليس لكم من ناصرين ينصرونكم ،
ويخففون عنكم هذا العذاب الذى حل بكم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السيء . فقال :
« ذلکم بأنکم اتخذتم آيات الله هزوا » .

أى : ذلکم العذاب المبين الذى نزل بكم سببه أنکم استهزأتم بآيات القرآن
الكریم ، وسخرتم منها ، وكذبتم من جاء بها ...
« وغرتكم الحياة الدنيا ، أى : وخدعتكم الحياة الدنيا بخلافها ومتعها
وشهواتها .

« فالايوم لا يخرجون منها ، أى : من النار .

« ولا هم يستعتبون ، أى : ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم ، بأن
يتوبوا إليه مما كان منهم من كفر وفسوق فى الدنيا ، لأن التوبة قد فات
أوانها ...

فقوله : « يستعتبون ، من العتب - بفتح العين وسكون التاء - وهى
الموجدة . يقال : عتب عليه يعتب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما هتب عليه
فيه ، قيل : عاتبه ...

والمقصود من الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين لا يقبل منهم فى هذا
اليوم عذر أو توبة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : « فقه الحمد ، أى : فقه - تعالى -
وحده الحق والثناء » رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، لا رب
سواه ولا خالق غيره .

« وله الكبرياء ، أى : العظمة والسلطان والجلال » فى السموات والأرض
وهو العزيز الحكيم .

قال ابن كثير : أى : هو العظيم الممجّد الذى كل شيء خاضع له ،

فقير إليه. وفي الحديث الصحيح يقول الله - تعالى -: العظمة إزارى ، والكبرياء رداى ، فن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى . .

« وهو العزيز ، أى : الذى لا يغالب ولا يمانع ، ، الحكيم ، فى أقواله وأفعاله... (١) » .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة الجاثية ، ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

القاهرة - مدينة نصر

الجمعة مساء : ٩ من ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

٢٢ / ١١ / ١٩٨٥ م